

السبيل إلى السعادة

ترجمات لقصص مختارة لتيموثي شي آرثر



ترجمة

أمل عمر بسيم الرفاعي





نشر إلكترونيًّا في جماد أول،١٤٣٣/ مارس، ٢٠١٢.

الإخراج الفني: شيماء رضوان

تصميم الغلاف: إدريس يحي

محتويات الكتاب

المقدّمة

السبيل إلى السعادة

كل منَّا ينشد السعادة لكننا كثيرًا ما نُخطئ في اختيار الطريق الأفضل إلى السعادة الحقيقية. قد يعتقد البعض أن السعادة في المال، وقد يعتقد البعض الآخر أن السعادة في السلطة، بينما يجهدها آخرون في المحبة، لكن القليل من بيننا من يُدرك بأن كل ما قد يتمتع به المرء من مال ومن سلطة ومن محبة سريع الزوال ... لذا علينا أن نبحث عن السعادة الحقيقية التي تنبع من داخل نفوسنا، وأن ندرك بأن سعادة الشخص الفاضل لا تكتمل إلا بالرضى والقناعة وبالعطاء وبأنها بإسعاد الآخرين، وبأن قمّة السعادة تكون في اطمئنان النفس وفي راحة الضمير.

فكم من حسد يَنصب على خزائن المال من عيون جائعة ومن نفوس مُتعطشة طامعة!

وكم من سلطة زالت بين عشية وضحاها!. وكم ما قد يعاني المرء من فقدان من أحبهم ومن أحبونه!

هذا ما عبّر عنه الكاتب الأمريكي تيموثي شي آرثر **Shay Timothy Arthur** في هذه المجموعة من القصص القصيرة التي يسرني أن أضعها بمتناولكم، وهي قصص هادفة ألقى فيها الكاتب الضوء على أوجه العلاقات بين مختلف فئات المجتمع، وعلى الأسس الأخلاقية السليمة التي يجب أن تسود التعامل بين الزوجين ـ بين الأهل والأولاد ـ بين الشقيقات والأشقّاء ـ بين الأصدقاء ـ وبين الطبقة الغنية والطبقة الفقيرة إلخ... بما يحقق الوصول إلى مجتمع فاضل وإلى حياة سعيدة. كما أورد فيها بأسلوب بسيط ومُشوّق المقارنة بين التصرف الإنساني الصائب السليم والتصرف الخاطئ الخالي من التعاطف، لكي يختتم كل من قصصه بمَقولة تتناسب مع مكارم الأخلاق والفضائل.

***

ملخصات القصص

قصّة الصواب والخطأ:

قصّة يُصوّر فيها الكاتب أسس التعامل السليم بين الزوجين الذي لا يجوز أن يستند إلى شعور التفوّق من قبل الرجل ولا إلى الشعور بالغبن من قبل المرأة، وإنما على التعاون وعلى سعي الطرفين لبناء أسرة سعيدة.

قصّة هل يستحق الأمر العناء:

قصّة من واقع مجتمعنا المعاصر يُلقي فيها الكاتب الضوء على ما قد يصل إليه بعض الأشخاص في مجال الأعمال الحرة، من جشع يُفقدهم إنسانيتهم ويؤدي إلى خسارتهم لأسمى ما يجب أن يكون لدى المرء من مشاركة وجدانية ومن تعاطف مع الآخرين.

قصّة كيفية مساعدة الفقراء:

قصّة يُبيّن فيها الكاتب بأن مساعدة الفقراء يجب ألا تتم بمجرد تقديم العون المادي المؤقت لهم، وإنما بتوجيههم إلى الطريق القويم وبتأمين مورد الرزق لهم بعمل يُجنّبهم مَذلّة السؤال. وبأن الشخص الذي لا يعمل ويكتفي بالاعتماد على الاستجداء، لا بدّ أن يفقد كرامته واحترامه لنفسه قبل أن يفقد احترام المجتمع له.

- علّمني كيف أزرع القمح ولا تعطني ألف رغيف من الخبز...

قصّة السبيل إلى السعادة:

قصّة تُبيّن بأن التوصّل إلى السعادة الحقيقية التي يسعى إليها كل شخص في هذا العالم، لا يكون إلا بالعطاء وبمساعدة الآخرين والتعاطف معهم، وهو ما يمنح المرء اطمئنان النفس وراحة الضمير.

- السعيد الحقيقي هو الشخص الذي يُسعد الآخرين.

السعادة لا تكون إلا بالعطاء.

قصّة اغفر وانس:

قصّة ذات مَغزى عميق جدًّا يُصوّر فيها الكاتب الصراع الداخلي الذي يُعاني منه كل منا عندما يتعرض للإساءة ممن كانوا بالأمس من أقرب الناس إليه. فهل بإمكان المرء أن ينسى الإساءة حتى لو غفر زلّة الآخرين؟... أم أن ذكرى جرح الكرامة لا بدّ أن يترك أثره في النفس رغم الصفح والغفران؟؟... هذا ما يصوّره الكاتب بكل شفافية في هذه القصّة.

اللّهُمَّ إذا أسأت إلى الناس أعطني شجاعة الاعتذار وإذا أساء الناس إلي أعطني القدرة على الصفح والنسيان.

قصّة المُهملة:

قصّة من واقع المجتمع يُصوّر فيها الكاتب الخطأ الذي قد يرتكبه بعض الأهل بالتمييز في تعاملهم بين الأولاد، مما يؤدي في كثير من الأحيان، إلى شعورهم بالتوحّد، وبأن شعورهم بالإهمال قد يتحول إلى نوع من الحقد يؤدي إلى الأنانية وسوء التصرف. كما يُصوّر الكاتب في هذه القصّة قِدسية العلاقة بين الأشقاء والشقيقات، وبأن هذه العلاقة يجب أن تستند إلى الحميمية والغيرية.

قصّة الفقير والغني:

قصّة قصيرة لكنها تتضمن الكثير من المعاني السامية وبالإيمان بأن الله تعالى يمنح لكل منا ما يُسعده وما يستحقه لحكمة نجهلها.

الفقير والغني يلتقيان لأن كليهما من صنع الله.

قصّة ملاك مُتنكر:

قصّة مؤثرة جدًّا عن طفلة مُعوّقة مَنسية يتم تَبنيها من عائلة فقيرة بعد أن ازدراها ورفضها الجميع، تُصوّر مدى السعادة التي يلقاها المرء بفعل الخير.

- أعظم لذة يعرفها الإنسان هي بأن يفعل الخير خِلسة ويراه يظهر علانية.

***

الصواب والخطأ

The Wright and Wrong

قد يُثير مثل هذا الأمر الاستغراب بعض الشيء... لكنه بالتأكيد من الأمور الواقعية: فقد يكون الأشخاص الذين يتمسكون بحقوقهم الشخصية إلى حدّ كبير، والذين يحرصون كل الحرص على الحفاظ عليها، هم الأشخاص الذين ليس لديهم سوى مفهوم مُبهم بكل ما يتعلق بحقوق الآخرين... فهم أمثال التاجر الذي لديه دومًا النزعة إلى الاعتقاد بأن من حقه أن يحصل من الزبائن على أكثر مما هو من حقه...

وتُعتبر السيدة "بربارا أوهلر" من أحد الأمثلة الحيّة على ذلك. وعلى الرغم من أنه ليس بإمكاننا أن نُصّنفها تمامًا ضمن فئة النساء المُتعاليات "نساء هذا العصر" لكنها كانت بالتأكيد امرأة لديها بعض الميل إلى هذا الاتجاه، كما أنها، وإن لم تكن بطبيعتها كذلك، كانت وهذا ما يُؤسف له كثيرًا، قد تأثرت بأفكار من تُخالطهم من صديقاتها

المُقربات ممن لديهن الكثير من الميل إلى هذا الاتجاه، وهو الأمر الذي عزّز لديها روح العنجهية والشعور بالاستقلالية.

كانت السيدة "بربارا زوجة وأمًّا، لكنها بالطبع كانت أيضًا امرأة وأنثى، وبذلك كان شعورها بقَهر الرجل ورغبتها بالتالي بالكفاح لأجل تحقيق ما كانت تعتبره من أولويات الحقوق العائدة لجنسها ولمكانتها، قد تجلّى في جميع تصرفاتها...

أما بالنسبة للسيد "هيرمان أوهلر"، فكان من يعرفه خارج المنزل يجده شخصًا مُعتدلاً لطيفًا وعقلانيًا، وبأنه بشكل عام من نوعية الرجال الطيبين المحترمين. لكن نظرة زوجته إليه كانت مختلفة تمامًا. كانت "زوجته المُحبة ونصفه الآخر" تجده زوجًا طاغية، وتعتبر بأنها لن تكون قد تقيدت بأهم وبأكثر القوانين قِدسية في طبيعتها كامرأة، إلا إذا امتنعت عن تنفيذ رغباته وعن تحقيق كل ما يتوقعه منها كزوجة وأمّ.

كانت السيدة "أوهلر" منذ بداية حياتهما الزوجية، قد هزئت تمامًا بفكرة ما على الزوجة من واجب احترام وطاعة الزوج، كما هزئت بما ورد في صكّ الزواج من عبارة "الطاعة والاحترام المتبادل بين الزوجين" وكانت تُصرّح دومًا بأنها كانت ستطلب من الكاهن إلغاء ذلك البند من صكّ الزواج ما لم تكن، ولكن ذلك قبل زواجها فقط، تميل كثيرًا إلى ذلك الشاب الوسيم جدًّا السيد "أوهلر"، وبما أنه لم يكن بإمكانها

حينذاك أن تطلب تغيير ما تم التعارف عليه من الطقوس الدينية للزواج، لذا كانت تصرفت بحكمة واتبعت حكم القبول بما تبرّره الضرورات ووافقت على ما تم إدراجه من شروط الزواج تلك. كانت السيدة "أوهلر" تشعر بأنها بتلك المُحاكمة العقلانية، وبإشارتها الدائمة إلى تلك الصعوبات، تكون قد أرضت تمامًا غرورها.

ومن الجدير بالذكر أن عدم احترام الزوج وعدم الامتثال لرغباته، ظلّ على الدوام كامنًا في ذهن السيدة "بربارا أوهلر"، وهو ما جعله يتجلّى بكل تصرفاتها وبكل ما تُظهره لزوجها السيد "أوهلر".

كانت السيدة "أوهلر" قد أدركت منذ بداية زواجها (وهذا بالطبع حسب مفاهيمها الخاطئة)، أن زوجها يتوقع منها الكثير، وبأنه لا يعتبرها أكثر من مُشرفة على أعمال الخدم في منزله، وبأنه يجد بأن من حقه التذمّر من جميع الأمور التي قد لا تتم بما يتوافق مع رغباته ومع مزاجه. كانت في البداية تُجيب على كل ما يُبديه من تذمر وعلى ما يقوله عندما تتأخر في إعداد الوجبات أو عندما يكون الطعام سيء الطهي بعبارة: "آسفة عزيزي، لكن هذا كل ما بإمكاني القيام به".

ثم كان أن غامر السيد "أوهلر" ذات يوم بسؤالها، وبالطريقة الأكثر لطفًا التي كان يُخفي بها شعوره الحقيقي تجاه إهمالها المستمر للكثير من الأمور التي لم يعد بإمكانه أن يتقبّلها:

" بربارا، أأنت متأكدة بأنه ليس بإمكانك القيام بأكثر من ذلك؟"

وكان وجه السيدة "أوهلر" قد توهج على الفور وأجابته بكل كبرياء:

" نعم أنا متأكدة من ذلك سيد أوهلر".

كانت تلك هي المرة الأولى في حياتها التي تُخاطب بها زوجها بعبارة "سيد أوهلر"، والمرة الأولى التي تُركّز بها نظرها عليه بمثل ذلك التحدّي.

ليس علينا الآن أن نتحدث عن الطريقة التي قد يتصرف بها غالبية الرجال في مثل هذه المواقف، لكننا سنورد فقط ما قاله وما فعله السيد "أوهلر":

كانت إجابته باندفاع وهو ينظر إلى زوجته ببعض الصرامة وينسحب من المائدة:

"وأنا أيضًا لست متأكدًا من ذلك سيدة أوهلر".

أجابته زوجته وقد زمت شفتيها:

"لست متأكدًا من ماذا؟"

أكدّ السيد "أوهلر" على ما قاله بعبارة:

"لست متأكدًا من أنه ليس بإمكانك ذلك"

وجاء ردّ زوجته بالعبارة التالية:

"وما الذي كنت تنتظره مني بحق الله؟"

وأجابها زوجها "أن تقومي بما أقوم به أنا في عملي. أن تستخدمي خادمة مُختصة تساعدك في الأعمال المنزلية، أو أن تحاولي أداء هذه الأمور بنفسك بالشكل المناسب".

وكانت زوجته قد أجابت:

"هل تقصد أن علي أن أدخل المطبخ وأن أقوم بطهي الطعام بنفسي؟"

"بربارا، بإمكانك أن تفهمي ما قلته وبالطريقة التي تناسبك. أنت المسئولة عن أمور المنزل ومهمتك أن تحرصي على أداء هذا الدور بالشكل المطلوب، وبأن يتم إعداد الطعام بطريقة صِحية ومناسبة لمن يقيمون فيه. فلو كان من تُكلفينهم بالقيام بأمر هام هو من صميم واجباتك المنزلية مثل تحضير الطعام، من الأشخاص غير المؤهلين والمهملين، فمن المؤكد أن من واجبك الدخول إلى المطبخ لكي تتأكدي على الأقل من أن

الأمور تتم بالشكل الصحيح... فأنا بالذات على سبيل المثال لا أضع ثقتي الكاملة بأي من العاملين لدي، وليس هناك أي قسم من أقسام الإدارة التي أعمل لديها لا يحظى بإشرافي الشخصي عليه. لأن الزبائن لا يُلقون بالاً إلى الأعذار التي قد يقدمها العاملون الذين يفتقرون إلى الخبرة أو ما قد يُدلي به العاملون المهملين منهم، وإنما ما سيفعلونه هو أنهم بعد وقت قصير يعمدون إلى تأمين احتياجاتهم من البضائع من مؤسسة أخرى قد تكون أكثر تنظيمًا وأفضل إدارة".

كانت تلك هي الإجابة الفاترة التي أوردها السيد "أوهلر" رغم ما كان فيه من غضب شديد.

أما إجابة السيدة "أوهلر" بكل برود وتحدٍ فكانت:

"ربما كان عليك أن تتناول وجباتك في مكان آخر إن كنت لا تجد هنا ما يتوافق مع مزاجك وما تتوقعه".

كان السيد "هيرمان أوهلر" بالنسبة لزوجته، قد ارتكب مع الأسف "الذنب الذي لا يُغتفر"... وبذلك كانت النتائج التي نجمت عن تلك الخطيئة ساحقة مما جعله بعد ذلك ييأس من الأمر ويتوقف نهائيًا عن أية محاولة جديدة وعن إبداء أية

ملاحظات أخرى. كان قد وجد بحدس الحرص على حماية الذات، بأن النزاع مع مثل ذلك الخصم، سوف تكون له نتائجه المشئومة، وبأنه بذات الوقت لن يحصل على أية نتيجة، وبأن هناك خطورة من أن يؤدي ذلك إلى خسارته لكل شيء.

لذا كانت الإجابة التي كرّرها على ذلك السيل من الكلام الجارح الذي استمرت زوجته بتوجيهه إليه:

"بربارا، أنت سيدة المنزل، تصرفي كما تشاءين، شكرًا على المقترحات قد أجد فيما بعد الطريقة الأنسب للتصرف".

كانت الجملة الأخيرة التي تفوّه بها قد أجبرت السيدة "أوهلر" على التوقف عن التحدّث بغضب، وكان تفوّهه بتلك العبارة بمثل الطريقة الهادئة قد هدأ من ثورة غضبها وأوقف سَيل الكلمات القاسية التي كانت تخرج من فمها.

كان ذلك بمثابة هدنة تم الاتفاق عليها بشكل ضمني في ذلك الصراع القائم بين الطرفين. لكن التنافر بينهما لم يكن قد تناقص فعليًّا. كانت السيدة "أوهلر" قد أدركت بأن زوجها يتوقع منها درجة أكبر من الاهتمام الشخصي بالأمور المنزلية، وهو الأمر الذي كانت تعتبر بأنه يحطّ من قَدرها كزوجة. وكانت تجد بأن عليها - لأنه كان يتوقع

منها ذلك - أن تحافظ على كرامتها بأن تُقلّل من اهتمامها ومن إشرافها على الأمور المنزلية بدلاً من أن تفعل العكس، وهذا ما جعل الطرف الآخر – "السيد أوهلر" - يشعر بالطبع بالكثير من الاستياء وبالتعاسة في حياته الزوجية.

كان السيد "أوهلر" في البداية يحتمل ذلك بحِلم جدير بالتقدير، لكن طبيعته الإنسانية كانت تخونه أحيانًا، فعندما يمتلئ القلب لا بد أن يتحدث اللسان... وهذا ما جعل الخلاف بينهما يحتدم أكثر فأكثر، وما جعل السيدة "أوهلر" تشعر بأن زوجها - بما يُبديه من ملاحظات - ليس أكثر من شخص طاغية لا يتمتع بأية حكمة، وبأن مثله مثل العديد من فئة الرجال الذين يعتبرون المرأة مخلوقة أقل مرتبة منهم، والذين لن يترددوا بسحقها في حال استسلامها لهم وضعفها أمامهم وخضوعها لهم.

وكان ما جعل الأمور تتفاقم أكثر وبكل أسف، أن تكون الصديقات المقربات للسيدة "أوهلر"، ومن تجتمع بهنّ باستمرار، من المُتحدّثات بكل حماس وجرأة عن حقوق المرأة وعن استعباد الرجل لها. ولم تكن السيدة "أوهلر" تتردد بالإشارة بكل فظاظة إلى أن زوجها هو أحد أفراد تلك الطبقة الاجتماعية التي لديها الاستعداد لسحق المرأة لو أنها سمحت له بذلك. وهذا ما جعل أولئك السيدات يَطلبن منها الحرص الدائم على حماية حقوقها والمحافظة على كبرياءها لأنها بذلك سوف تكون قد حافظت

أيضًا على كرامة وعلى رِفعة بنات جنسها، وبأن عليها أن تعمل على أن يُدرك ذلك الرجل المُستبد الطاغية بأن الوقت قد حان لأن يتم تمريغ غروره وتعاليه في التراب.

وبذلك كانت السيدة "أوهلر" نتيجة لذلك التحريض المستمر على حفاظها على حقوقها الشخصية وعلى حماية نفسها من تعدّيات زوجها، قد تخطت تمامًا جميع الحدود، بعدم مبالاتها بحقوق زوجها عليها وبالعديد من الأساليب الأخرى.

ومرّ الوقت دون أن يطرأ أي تغيير نحو الأفضل في علاقة الزوجين. لكن المرأة قد لا تُفكر أحيانًا بعقلانية، كما يفعل الرجل، وهي بذلك قد لا تُقدّر ما سيترتب على تصرفاتها من نتائج، سواء أكان ذلك بالنسبة إلى الوقائع الحقيقية التي تُشاهدها أمام عينيها أو بالنسبة للمبادئ المُجردة المُتعارف عليها في المجتمع، وإنما قد تعتمد فقط على ما يُوجّهها إليه إحساسها وحدسها. لذا لو كان حدس المرأة الأنثوي قويمًا وصائبًا فسوف تكون أحكامها واقعية وصائبة، ولكن عندما لا يكون حدسها الأنثوي صائبًا فلا بد من أن تكون أحكامها خاطئة... ومع الأسف لم يكن حدس السيدة "أوهلر" الأنثوي صائبًا منذ البداية، وهذا ما جعلها تُدفع بكل سهولة من رفيقاتها، إلى التقييم الخاطئ لكل من وضعها ووضع زوجها في ذلك الزواج.

وذات يوم، لدى عودة السيد "أوهلر" إلى المنزل لتناول الغداء، كان أحد الخدم قد أعلمه بأن زوجته ذهبت لحضور اجتماع حول مكافحة الاستعباد وبأنها لن تعود قبل المساء، كما أنها ستتناول غداءها مع إحدى الصديقات... لم يُدلِ السيد "أوهلر" حينذاك بأية ملاحظة واضطر لتناول عشاءه بمفرده، لكن الطعام كان سيئًا جدًّا لا يكاد يُؤكل. لم تكن أعمال السيد "أوهلر" في ذلك الوقت مزدهرة تمامًا. كانت قد بدأت بالتراجع، وبذلك كان السيد "أوهلر" يشعر بالكثير من الإحباط، لكنه مع ذلك، كان يُلبي دومًا كافة متطلبات زوجته التي كانت قد بدأت تميل أكثر فأكثر إلى الإسراف.

لكن تعبيرًا غريبًا كان يبدو على وجه السيد "أوهلر" عندما غادر منزله في ذلك اليوم. كانت قد تكوّنت في ذهنه رؤية لهدف جديد، أو كما يُقال كان قد تغيّر وأصبح رجلاً جديدًا، لكن ذلك التغيير كان إلى الأسوأ وإلى أسوأ مما قد يخشى منه المرء.

وعندما عادت السيدة "أوهلر" في ذلك اليوم في ساعة متأخرة، كان قد خطر ببالها في البداية أن تسأل الخادمة فيما إذا كان السيد "أوهلر" قد أبدى أية ملاحظة عندما لم يجدها في المنزل في موعد الغداء. لكنها اعتبرت بأن في ذلك ما قد يُعرّضها إلى نوع من الكشف عن أسرارها لشخص أقل مرتبة منها، شخص مسئول أمامها، مثل تلك

الخادمة. لذا لا، لن تفعل ذلك!... وبذلك لم تكن قد تنازلت إلى الاستفسار عن مثل هذا الأمر الذي يتعارض تمامًا مع استقلاليتها وكرامتها.

لكن الغريب في الأمر أن السيد "أوهلر" لم يكن قد ظهرعندما حلّت ساعة تناول شاي بعد الظهيرة، كما أنه لم يعد إلى المنزل عندما حان وقت تناول العشاء. ظلت زوجته تنتظره لمدة ساعة ثم اضطرت إلى جعل الأطفال الصغار يتناولون عشاءهم ويذهبون إلى النوم، لكن الغريب في الأمر أيضًا أنها لم تشعر بأية رغبة في تناول الطعام...

لم تكن السيدة "أوهلر" منذ زواجهما قد أمضت ليلة مزعجة مثل تلك الليلة، كانت أكثر من عشرين مرّة توشك على توجيه اللوم لنفسها، لكنها كانت تعود بسرعة إلى الاحتكام إلى استقلاليتها وإلى التفكير بحريتها الشخصية كامرأة، لكي تقاوم ذلك القلق الذي كان قد بدأ يتزايد بالتدريج، ولكي تتغلب على شعور الضيق الذي تتسبب به بعض الأفكار غير المُرضية التي اقتحمت ذهنها رغمًا عنها، والتي لم تكن لتتقبّلها على الإطلاق.

عاد السيد "أوهلر" إلى المنزل بعد أن قاربت الساعة الحادية عشرة ليلاً. كانت تفوح منه رائحة الدخان والشراب، وبذلك لم تكن زوجته بحاجة إلى التساؤل عن

المكان الذي أمضى فيه تلك الليلة. كانت تبدو عليه نظرة غامضة من عدم المبالاة، كما أنه عندما واجه نظرة زوجته كان قد بادرها القول باستخفاف:

"أه !.. ها أنت الآن في المنزل! هل أمضيت وقتًا مُمتعًا في الخارج؟"

بإمكاننا أن نقول، وبالمعنى الحرفي، أن السيدة "أوهلر" شعرت حينذاك ببعض الخوف، رغم أن مثل هذا الأمر لو وصل إلى مسامع صديقاتها العنجهيات، لكنّ سيُصدمن من أن تكون، من عقدن عليها الكثير من الآمال، قد شعرت بالخوف من مخلوق ليست له أية أهمية مثل زوج...

نعم، كانت السيدة "أوهلر" قد شعرت فعلاً بالخوف من المظهر الجديد الذي قدّم به زوجها نفسه إليها في تلك الليلة، كما شعرت بأنها بذلك قد أصبحت في الوقت الحاضر، ومع كل أسف، أمام مُعضلة لم تكن قد توقعتها ولم تكن قد استعدت لها على الإطلاق وبأنه لم يعد أمامها سوى الاختيار بين أمرين...

وبإمكاننا أن نتوقع بأن السيدة "أوهلر" لم تتمكن من النوم، على الإطلاق في تلك الليلة، بينما كان زوجها قد استغرق في النوم، وبأنها في صباح اليوم التالي نهضت

مُتعبة مُقطبة الجبين، لكنها بذات الوقت كانت قد تمكنت من السيطرة على قلقها واستطاعت أن تتمالك نفسها وأن تتظاهر بعدم المبالاة بزوجها...

كان زوجها أثناء الإفطار قد تحدث مع أولاده بشكل طبيعي لكنه لم يكن قد تبادل الكثير من الحديث مع زوجته، التي كان بإمكانها، بما تتمتع به من قدرة على التمييز، أن تُدرك ما يُخفيه من مشاعر حقيقية وراء ذلك المظهر الخارجي الهادئ.

وعندما نهض زوجها من أمام المائدة دون أن يكون قد تناول سوى رشفة من تلك القهوة التي لا تُشرب، سألته السيدة "أوهلر" وهي تتظاهر بعدم المبالاة:

"هل ستكون هنا الليلة في موعد العشاء؟"

وأجابها بحدّة:

"سوف أكون هنا بالتأكيد"

كانت تلك الإجابة قد زادت من توترها.

ثم قال "لكن لا حاجة لانتظاري لأنني اتفقت مع أحد الأصدقاء على تناول العشاء في مطعم الآستور".

أجابت السيدة "أوهلر" بتعالٍ:

"أووه، هذا جيد جدًّا"

لكن اتقاد عينيها كان يدلّ على أنها كانت على وشك التفوه ببعض الكلمات الجارحة.

ثم ذهب السيد "أوهلر" بعد ذلك إلى متجره، لكنه في ذلك اليوم لم يكن قد أظهر ما اعتاد عليه من فعالية ومن اهتمام بالعمل، كما كان قد فوّض الكثير من الأعمال التي كان يقوم به شخصيًّا إلى موظفيه ثم ذهب لتناول الغداء في مطعم الآستور. أمضى السيد "أوهلر" معظم وقت الظهيرة هناك وهو يدخن ويتحدث مع أصدقائه ويتناول الشراب إلى أن عاد إلى منزله في موعد تناول الشاي.

نظرت زوجته إليه بقلق عندما دخل إلى المنزل، كانت تكسو وجهه شبه ستارة لم يكن بإمكانها اختراقها. وعلى الرغم من أن السيد "أوهلر" لم يكن قد خرج من المنزل في تلك الليلة، لكنه كان يبدو شخصًا مختلفًا.

وكانت زوجته قد سألته في صباح اليوم التالي وهو على وشك مغادرة المنزل:

"هل بإمكانك أن تمنحني بعض المال؟"

كانت تلك هي المرة الأولى التي تتوجه بها السيدة "أوهلر" إلى زوجها بمثل هذا السؤال بأسلوب يوحي بالتردد، كما كانت المرة الأولى التي تُدرك فيها من نظرته بأن طلبها لم يلق الاستحسان.

سألها زوجها "ما هو المبلغ الذي تحتاجينه؟"

قالت السيدة "أوهلر":

"أود الحصول على مائتي دولار".

وكانت الإجابة التي لم تكن تتوقعها منه:

"أعتذر، ولكن ليس بإمكاني إعطائك مثل هذا المبلغ الآن، فعندما كنت أمس في جولة مع أصدقائي، كنت قد خسرت خمسمائة دولار نتيجة سوء تصرف وإهمال أحد الموظفين لدي".

هتفت السيدة "أوهلر":

"هل كنت تمضي الوقت مع أصدقائك؟!"

"نعم. لا أظنك تتوقعين أن أظل مرتبطًا بالعمل طوال الوقت، فأنا أيضًا أحب أن تكون لدي الفرصة للاستراحة وللتواصل مع الأصدقاء، مثلي مثل أي شخص آخر...

حسنًا! ما حدث أن أحد تجار مقاطعات كان يُدين لي بمبلغ خمسمائة دولار وكان قد اتصل بي ووعدني بسداد المبلغ بعد ظهر الأمس. كنت قبل ذهابي مع أصدقائي قد شرحت لأحد الموظفين لدي ما عليه أن يفعله عندما يأتي ذلك التاجر، وقد توقعت بالطبع أن يقوم بذلك على الوجه المطلوب. لكن ذلك لم يحدث، فعندما وجد التاجر بأن عليه أن يتعامل مع الموظف وليس معي اعترض على الفاتورة، مما جعل ذلك الموظف المخبول، بدلاً من أن يوافق عليها، يُصرّ على أن الحساب صحيحًا، وبذلك لم أحصل على ذلك المبلغ. كما أنني، على ما يبدو، سوف أخسر كامل الصفقة نظرًا لأن ذلك التاجر يبدو من الأشخاص المراوغين وسوف يجد بأن من صالحه على كافة الاحتمالات أن يلجأ إلى التخلّف عن الدفع الآن وربما حتى الربيع القادم... كنت أرغب بالحصول على المال اليوم لحاجتي إليه ولكن علي الآن على ما يبدو، أن أسعى طوال الصباح للحصول على المبلغ الذي أحتاجه".

قالت السيدة "أوهلر" بانفعال وبلهجة تدلّ على اللوم:

"ولكن كيف بإمكانك أن تتغيب عن العمل في مثل تلك الظروف وأن تترك الأمر لأحد الموظفين لديك؟"

وكانت الإجابة الفورية على ذلك:

"أتسأليني كيف كان بإمكاني ذلك؟ هل تتوقعين أن أرتبط في المتجر كالعبد! أنت مخطئة لو ظننت ذلك. هذا كل ما لدي! فأنا أستخدم الموظفين لكي يقدموا إلي بعض المساعدة في عملي".

أجابت السيدة "أوهلر" بكل جدّية:

"ولكن ماذا لو لم يكن الموظف أهلاً لذلك؟"

قال السيد "أوهلر":

" لن يغيّر ذلك نهائيًّا من موقفي ولا من طباعي..."

وكان بعد أن قال ذلك قد حدّق في عيني زوجته للحظات ثم انسحب من المنزل دون أن يُضف شيئًا".

ورغم أن السيدة "أوهلر" كانت تُقنع نفسها في البداية بأن ذلك التغيير غير المُتوقّع في زوجها، ليس سوى بعض التظاهر والادعاء، أو أنه ربما كان عبارة عن نزوة عابرة، لكنهاكانت بعد ذلك قد أدركت بكل أسف بأنها حالة دائمة...

فقد بدأ السيد "أوهلر" يُهمل أعماله ويُهمل عائلته لأجل الاستمتاع بصحبة رفاقه، وكان كلما طلبت منه زوجته أن يمنحها بعض المال يُدلي بسبب يمنعه من تأمين

المال لها، إما بسبب خسارة أحد الزبائن أو نتيجة الإهمال وعدم المبالاة، أو لعدم أهلية الموظفين أو بسبب إهمال العمال لديه، ويقول بأن هذا ما حدث أثناء غيابه عن المتجر عندما كان يستمتع بوقته مع الأصدقاء.

كان ما لدى السيدة "أوهلر" من شعور بالاستقلالية قد منعها لوقت طويل من إذلال نفسها لزوجها، مما جعل الاحتياجات اليومية تتزايد وتُطوقها أكثر فأكثر، لكنها مع ذلك لم تكن قد أدركت بوضوحٍ بأن تصرفات زوجها ليست سوى انعكاس لتصرفاتها الخاطئة منذ بداية حياتهما الزوجية. كان من العسير عليها أن تعترف بأنها كانت مخطئة حتى تجاه نفسها، لكن الإدانة كانت تُشير إليها بأصابع الاتهام، وبذلك لم يعد بإمكانها أن تحجبها عن نظرها.

ثم كان أن أدى إهمال زوجها لعمله إلى نتائج مشئومة أوصلته في النهاية إلى الإفلاس، لكن السيد "أوهلر" كان مع ذلك يُبرّر تصرفاته بأنه لن يجعل من نفسه عبدًا وبأنه لن يُغرق نفسه في العمل الشاق الذي استخدم الموظفين لديه لأدائه. كان ذلك كل ما بإمكان زوجته أن تحصل عليه من تبريرات على احتجاجاتها المُتكررة على تصرفاته.

لكن الحقيقة أن السيد "أوهلر" الذي كان إلى ذلك الوقت، قد قاوم ما كان يخطر بباله، في فترات صفائه الفكري، من الحلول الأفضل للوضع، كما قد يكون بإمكاننا أن

نقول، كان يعلم بأن زوجته بما لديها من كبرياء وغرور لن تقوم بإبلاء اهتمامها الشخصي لواجباتها المنزلية تجاه عائلتها، وكان يعلم أيضًا بأنها سوف تعتبر كل ما ستجده في سلوكه بأنه فقط من يستحق اللوم...

لكن الفقر، ذلك المُضطهد القاسي كان قد أدى أخيرًا إلى أن يتم طرد عائلة "أوهلر" من منزلها المريح وإلى أن تغرق تلك العائلة في غياهب الحرمان والحاجة...

كانت صديقات السيدة "أوهلر" المُتحجرات العقل ممن كانت صُحبتهم قد سَحرتها لمدة طويلة، واللاتي كنّ بوجهات نظرهن ومبادئهن، قد مارسن عليها ذلك التأثير المشئوم، قد أشرن عليها أخيرًا بالانفصال عن زوجها، ذلك الزوج الذي لم يتردد في الإساءة إلى ما لدى زوجته من مواهب رفيعة كامنة ... ذلك الزوجِ الطاغية القاسي الذي لا يليق بتلك السيدة الراقية...

لكن الحقيقة أن السيدة "أوهلر" كانت تعرف أكثر من أي شخص آخر بأن تلك الصورة كانت خاطئة، وبذلك كان كل ما في طبيعتها من خير ومن صدق وولاء، قد استيقظ في نفسها من جديد، وبتمرد وسِخط على ما سمعته منهن..

كانت السيدة "أوهلر" قد عادت تلك الليلة إلى منزلها المتواضع وإلى أولادها المُهملين، وهي في حالة فكرية تختلف كليًّا عن كل ما مرّ بها في حياتها، مما جعلها تكاد تتساءل بينها وبين نفسها فيما إذا كانت لا تزال ذات المرأة... كانت السحابة التي حجبت عنها الحقيقة قد سقطت من أمام عينيها وجعلتها تشاهد كل ما حولها بمنظور مختلف تمامًا، وتعيد النظر من جديد بجميع علاقاتها السابقة وبذلك تساءلت:

"هل كان زوجي بالفعل ذلك الطاغية المُستبد؟"

كانت قد نطقت بذلك التساؤل بينها وبين نفسها بشكل لا إرادي، ثم عادت إلى التساؤل:

"هل كان زوجي من داس بالفعل على حقوقي منذ البداية أم أنني كنت من دست على حقوقه؟".

ثم حدثت نفسها: "من حق زوجي علي أن ينتظر مني أفضل التعامل، ومن حقه علي أن أجعل من بيته بيتًا مريحًا وسعيدًا. فهل كنت قد قدمت له ذلك؟ هل قمت بأداء ما علي من التزامات عائلية ومن واجبات زوجية على الوجه المطلوب؟ هل كنت زوجة صالحة مخلصة له؟"

كانت تلك الأفكار تتتالى في ذهن السيدة "أوهلر" وتُوجّه إليها اللوم كما لو أن هناك من يقف أمامها وهو ينطق بعبارات الاتهام تلك بصوت مرتفع...

ولكن ما الذي كانت عليه إجابتها هذه المرّة على كل ذلك اللوم؟... لا... لم تكن إجابتها هذه المرّة بتبريرها ما فعلته ولا بإيجاد الأعذار لنفسها... وبذلك عادت إلى بيتها وهي مُدانة ذليلة ونادمة...

كانت السيدة "أوهلر" عندما عادت إلى منزلها في وقت متأخر من بعد الظهيرة ذلك اليوم وقد اقترب المساء، قد سمعت لدى اقترابها من الباب صرخة طفل، وأدركت على الفور بأنها صرخة ألم وليست صرخة طفل غاضب مُشاكس، وبذلك ركضت إلى غرفتها. كان ما وجدته هناك ثلاثة من أطفالها الصغار السنّ منبطحين معًا على الأرض، وبأن وجه ويدي وكذلك ملابس شقيقتهم الأصغر سنًّا كانت قد احترقت على نحو سيء جدًا...

وكان كل ما تمكنت التوصل إلى معرفته منهم أن الفتاة المكلفة برعايتهم تركت الأطفال بمفردهم وغادرت المنزل نهائيًّا لعدم رغبتها بالعمل، ذلك لأنها نتيجة للظروف المادية التي وصلت إليه العائلة كانت قد أصبحت المسئولة عن جميع الأعمال المنزلية، وهذا ما جعل الأطفال يتجولون بحرية في المنزل ويفعلون ما يشاءون. ثم أعلمها الطفل

الأكبر سنًّا بعفوية بأنهم كانوا يلهون معًا باللعب بأعواد الثقاب عندما اشتعلت ملابس شقيقتهم الصغرى وبأنه وشقيقه الأكبر سنًّا كانوا، بنوع غريب من سرعة البديهة، قد ألقوا عليها مِنشفة رطبة وهذا ما أنقذ حياتها.

كانت السيدة "أوهلر" بعد أن اطلعت على تفاصيل ما جرى قد سألتهم على الفور:

"هل عاد والدكم إلى المنزل؟"

أجاب الأولاد: "نعم أمي".

"وأين هو الآن؟".

أجاب أكبر سنًّا الأولاد: "ذهب لإحضار الطبيب".

وكان السؤال الذي صدر عنها بعفوية: "وما الذي قاله؟".

تردّد الطفل قليلاً ثم أجاب بسذاجة:

"قال بأنه كان يتمنى ألا تكون لدينا أمًّا لكي يعرف كيف يتولى العناية بنا بنفسه".

كان وَقع تلك الكلمات على السيدة "أوهلر" أشبه بصفعة مؤلمة. تراجعت إلى الخلف ثم رمت بنفسها على أحد المقاعد أشبه بطفل فقد القدرة على الحركة.

كان زوجها قد دخل بعد وقت قصيرإلى المنزل وبرفقته الطبيب، وقبل أن تكون قد استعادت قدرتها على الحركة، لكنه تظاهر مع ذلك بأنه لم يلحظ وجودها، ولم يلتفت إلى ما كانت فيه من اضطراب. لكن السيدة "أوهلر" كانت قد أعلنت بعد ذلك عن وجودها بتصرفاتها اللاحقة.

كان كل ما لديها من مشاعر الأمومة قد استيقظ في قلبها في تلك اللحظة. لم يكن لديها الكثير مما تقوله كما لم تكن قد أبدت اهتمامًا غير عادي، لكن جميع تصرفاتها كانت بهدف إثبات ما تشعر به من حنان ومن اهتمام بطفلتها، وبذلك كانت الطفلة المتألمة بعد أن تلقّت كل ما يلزم من رعاية طبية، قد أصبحت بعد وقت قصير في سريرها.

لم يكن أي من الزوجين إلى تلك اللحظة قد توجّه بأية كلمة إلى الآخر، وكانت السيدة "أوهلر" قد التمست نظرة من السيد "أوهلر" لكنه كان قد تجنّب النظر إليها وأشاح بوجهه عنها.

ثم بدأ الظلام يحلّ، وبدأت النيران تخبو في الموقد، تخبو وتكاد تنطفئ، ولم تكن الخادمة قد عادت بعد، كما لم يكن من المحتمل أن تعود حسب ما فهمته السيدة "أوهلر" من أولادها. ولكن، سواء أكانت تلك الخادمة قد قرّرت العودة إليهم

من جديد أم أنها لم تعد ترغب بذلك، فلم يعد لذلك الأمر أية أهمية بالنسبة إلى السيدة "أوهلر" التي كانت بوضع نفسي جعلها لا تجد في ذلك ما قد يتسبب بأي إشكال، وإنما كانت بالأحرى قد شعرت بالراحة لغيابها، وبذلك تركت زوجها وأولادها في الغرفة وتوجهت إلى المطبخ.

بعد وقت قصير، كان قد تم إضرام النيران من جديد، وكان إبريق الشاي قد بدأ يغلي برفق فوق الموقد، كما كانت وجبة عشاء شهيّة، أعدتها السيدة "أوهلر" بنفسها، بانتظاره على المائدة...

كان السيد "أوهلر" عندما دُعي إلى تناول الشاي، قد دهش كثيرًا بما رآه، وازدادت دهشته عندما اتخذ مقعده الاعتيادي أمام المائدة التي كانت سابقًا لا تثير شهيته لتناول الطعام، وشاهد أمامه طبقًا شهيًّا. لم يقل شيئًا، لكن شعورًا دافئًا ملأ قلبه بالبهجة وجعله يخفق بقوّة في صدره، ويتساءل وهو يحتسي كوب الشاي الذكّي الرائحة بكثير من المتعة، هل يمكن أن تكون زوجته قد أعدّت كل ذلك بنفسها!...

لكن تلك البهجة سرعان ما اختفت من نفسه عندما تذكر بأن زوجته، بكل ما لديها من إمكانية لجعله سعيدًا ولجعل منزله أكثر راحة، كانت تفتقر دومًا إلى الرغبة في ذلك...

كان السيد "أوهلر" في الفترة الأخيرة يُمضي الليالي خارج المنزل. لكن شيئًا ما جعله يبقى في المنزل تلك الليلة. ثم دارت بضع كلمات فقط بينه وبين زوجته، لكن الأخيرة كانت طوال تلك الليلة تعمل بكل نشاط وحيوية كل حيوية ونشاط، وفي كل مكان كانت تضع يدّها عليه، كان الترتيب يحلّ محلّ الفوضى، ويشعّ فيه ما يُشبه النور، وهو الشيء الذي لم يكن شاهده سابقًا.

شعر "السيد أوهلر" وهو يشاهد ذلك بالكثير من الاستغراب كما شعر أيضًا بالكثير من الأمل. لكنه مع ذلك لم يقل شيئًا...

وكان ما أثار استغرابه أكثر أيضًا أن السيدة "أوهلر" استيقظت مع بزوغ فجر اليوم التالي وأعدت بنفسها وجبة إفطار شهية جدًّا. وبذلك جازف السيد "أوهلر" بالتفوّه بكلمتي إطراء، بأن قال أثناء تناوله القهوة بأنه لم يسبق أن تناول ألذّ من هذه القهوة طوال حياته، وكانت السيدة "أوهلر" قد ألقت عليه نظرة تنمّ عن الامتنان لكنها لم تُجبه.

وعندما عاد السيد "أوهلر" من المتجر الذي كان يعمل فيه بعد إفلاسه بأجر زهيد، في موعد العشاء تمامًا، وجد بانتظاره وجبة عشاء شهية مؤلفة من عدة أصناف لم يسبق له أن تناول مثلها منذ زواجه، كما كان كل شيء في بيته يبدو بيتًا لعائلة...

واستمرت الأمور بهذا الوضع لمدة أسبوع، ظلّ السيد "أوهلر" خلاله على موقفه مراقبًا مستغربًا ما يشاهده. أما السيدة "أوهلر" فقد وجدت مكافأتها على ما تفعله، ليس فقط بإدراكها لمعنى الواجب تجاه عائلتها، ولكن بما لمسته من الكثير من التغيير في طباع زوجها الذي لم يعد عصبي المزاج وسيء الطباع والذي لم يعد يتغيب مطلقًا عن تناول وجباته في المنزل، كما أنه لم يعد يتغيب عن المنزل ليلاً منذ أصبحت زوجته زوجة صالحة وأمًّا متفانية لأولادها.

ثم حدث بعد ذلك نوع من المُحاكاة ومن التنافس الصامت في تبادل النوايا الحسنة بين الزوج والزوجة اللذين عاشا سابقًا لسنوات طويلة في حالة من عدم المبالاة. فقد ألح السيد "أوهلر" على استخدام خادمة جديدة طباعها: الفتاة التي تركت العمل، لكن السيدة "أوهلر" كانت بالمقابل قد رفضت ذلك بأن قالت بأن ظروفهما المادية الحالية لا تسمح بتكبّد مثل تلك النفقات. لكن السيد "أوهلر" قال أيضًا بالمقابل بأن بإمكانهما ذلك بأن أشار إلى وجود احتمال لحصوله على زيادة في الراتب.

ثم قال لها ذات يوم بعد التغيير الذي لمسه في طباعها:

"لا أريدك أن تصبحي مجرد امرأة كادحة. بما أنك تعرفين كيف تتم الأمور بالشكل الأفضل، فكل ما عليك أن تتولي إدارة الأمور وأن تُشرفي فقط على أعمال

الخدم. أعتقد أن أيامًا مشرقة بانتظارنا، آمل ذلك، سوف يزداد راتبي اعتبارًا من الشهر المقبل، سوف يصل إلى ألف دولار وسيكون بإمكاننا حينذاك أن ننتقل من هذا المكان البائس إلى منزل أفضل بكثير".

كان في صوت السيد "أوهلر" مزيج من الأمل ومن الرقة مما أثر بعمق في السيدة "أوهلر". تملّكها شعور غامر بالحنان وبذلك ألقت رأسها على صدر زوجها وأخذت تبكي ... وتبكي ... وعندما استطاعت أن تتمالك نفسها قالت له برقّة:

"عزيزي هيرمان، سواء أكانت أيامنا المقبلة أكثر إشراقًا أو أكثر ظلمة، فكل ما أتمناه أن يساعدني الله تعالى كي أكون لك زوجة حقيقية، زوجة صالحة... وحتى لو تعرضت حياتنا للغيوم أو للعواصف فسوف أكون لك دومًا الزوجة المخلصة..."

زوجي العزيز! أرجو أن تُسامحني على سوء تصرفي في الماضي ولتثق بأنني سوف أخلص لك في حياتنا المقبلة معًا وبأنني لن أخذلك".

ولم يكن السيد "أوهلر" بالفعل قد خُذل. كانت السيدة "أوهلر" قد اكتشفت المعنى الحقيقي لرباط الزواج وعرفت ما عليها من واجبات عائلية حقيقية، ولم تعد تشعر بالضيق مما عليها القيام به من واجبات كما لم تعد تتجاوز حقوق زوجها عليها.

كانت سرعة استعادة السيد "أوهلر" لمنصبه السابق في العمل قد جعل السيدة "أوهلر" تشعر أحيانًا بالاستغراب، فقد ارتفع راتبه الشهري من موظف براتب ألف دولار في العام إلى ألفي دولار ثم أصبح شريكًا في المتجر الذي يعمل فيه، كما كان خلال فترة قصيرة قد أصبح أيضًا من كبار رجال الأعمال ومن الأثرياء....

وكان ما أدهش السيدة "أوهلر" قد أدهش من حولهما أيضًا، حتى أن البعض كانوا يُلمحون إلى أنه لم يكن يومًا من محدودي الموارد كما كان يدّعي...

ليكن الأمر كما قد يكون ... بما أن السيد "أوهلر" لم يعد يَعهد بما عليه القيام به من أعمال هامة إلى موظفيه، وبما أن السيدة "أوهلر" من ناحيتها أيضًا، لم تعد تعهد بما عليها من واجبات لإسعاد عائلتها إلى الخدم المُهملين غير المُؤهلين...

وأصبح ذلك الزوج يشعر بأن منزل عائلته هو المكان الأكثر بهجة في العالم، كما لم تعد زوجته تشعر بأنها ليست بالنسبة إليه سوى مشرفة على أعمال الخدم، وإنما هي الرفيقة الأحب إليه والزوجة التي يهتم بها والتي يتعامل معها بأقصى درجة من مشاعر التعاطف والحنان...

***



هل يستحق الأمر العناء؟

Will it pay?

قال السيد سميث لدى دخوله إلى متجر جاره السيد جونس:

"أود أن آخذ ساعة من وقتك هذا الصباح".

سأله السيد جونس وهو يبتسم "هل هناك فائدة من ذلك؟"

أجابه السيد سميث "ليس الكثير من الناحية المادية".

هزّ السيد جونس كتفيه وقوّس حاجبيه وقال:

"أنت تعلم بأن الوقت من ذهب".

"لكن المال ليس كل شيء في الحياة، هناك شيء آخر أكثر أهمية في هذا العالم إلى جانب الدولارات".

"هذا صحيح، لكن الرجل الذي يمتلك الدولارات بإمكانه أن يحصل على الشيء الآخر الذي أشرت إليه وكلما رغب بذلك".

أجاب السيد سميث "لست متأكدًا من ذلك، وبإمكاني أن أعلمك عن شيء ليس بإمكان المال أن يجلبه للمرء".

"فإذن لتعلمني بذلك".

"نفس مُطمئنة"

أجاب السيد جونس "بالنسبة إلي، أنا لا أهتم كثيرًا بمثل هذا الأمر، ولكن ما هو الأمر الذي سوف تُضيع لأجله ساعة من وقتي؟"

"هل تتذكر السيد لويد الذي كان أحد رجال الأعمال في الميناء؟"

"نعم؟ وماذا بشأنه؟ اعتقدت بأنه توفي في نيو أورلينز منذ أكثر من عام".

"نعم، لقد توفي!"

"كما أنه على كافة الأحوال لم يكن يُساوي أكثر من دولارٍ واحد".

"ربما كنت أنا أيضًا أعتقد بأنه لا يساوي دولار واحد ولا حتى الكثير من الدولارات، لأنه لم يكن يومًا من الأشخاص الدُهاة بكل ما يتعلق بأمور التجارة رغم

أنه كان شريفًا جدًّا وطيب القلب، لذا لم يكن قد وفق أيضًا في أعماله بعد مغادرته البلدة".

أجابه السيد جونس بازدراء "كان شريفًا وطيب القلب! هناك الكثير من مثل أولئك الرجال. بإمكاني أن أشير إلى العشرات منهم في كل شارع من شوارع هذه المدينة، لكن لا يستحق الأمر أن يكون المرء على صلة وثيقة بهم.

فسوف تُصبح عرضة للمعاناة بسبب ما فيهم من ضعف مُحبب"

" سأله السيد سميث:

" أكان هذا نتيجة لخبرتك ولتجربتك الشخصية؟"

قال السيد جونس:

" ليس لدي شخصيًا الكثير من الخبرة في هذا المجال، لكنني أعرف بعض من عانوا لهذا السبب".

"لكنني كنت أتحدث الآن عن السيد لويد".

"أعلم ذلك، ولكن ماذا بشأنه؟"

"علمت هذا الصباح بأن أرملته وصلت أمس إلى البلدة. وبأنها بحاجة إلى العون والمشورة. أعتقد بأنه ليس من الجائز لمن عرف تلك العائلة في السابق، أن يتعامل معها الآن بعدم مبالاة. لذا اقترح أن نقوم بزيارتها لكي نسأل عن احتياجاتها وأريدك أن ترافقني في هذه الزيارة.

"أجاب السيد جونس على الفور:

" ليس بإمكاني أن أفعل ذلك؟"

"لِم لا؟"

"لا يستحق الأمر العناء".

قال السيد سميث:

"لست أتوقع أن تكون لهذه الزيارة فائدتها من الناحية التجارية أو من الناحية المادّية، لكن من المؤكد أن للاعتبارات الإنسانية أيضًا مكانها".

"الاعتبارات الإنسانية، لا تستحق الاعتبارات الإنسانية ذلك، سيد سميث. هذه هي تجربتي الشخصية. كنت في السابق قدمت المساعدة لاثنين أو لثلاثة أشخاص، وباعتقادك ما الذي تلقيته منهم بالمقابل؟"

"الشعور المُمتع لمن يُقدم خدمة جيّدة لأحد جيرانه".

" لا هذا، ولا حتى أقل قدر من ذلك... وإنما كنت قد أضعت مالي لكي أعاني ولكي يصبح لي العديد من الأعداء، وعندما طالبت بما يخصّني من تلك الصفقة كان كل ما حصلت عليه الإهانة... هذه هي تجربتي سيد سميث، وهي تجربة تسع وتسعين من المائة ممن استجابوا لما يسمى "بالدواعي أو الاعتبارات الإنسانية". لذا، وكما قلت لك سابقًا لا يستحق الأمر العناء".

"فإذن أنت لا تنوي مرافقتي لزيارة السيدة لويد؟"

"لا سيدي، لن تطلب مني أن أذهب للبحث عن التجار المفلسين. دعهم يلجأون إلى أصدقائهم. لو كنت سأقحم نفسي بمثل هذه الأمور، فسوف يصبح لدي عما قريب الكثير من المشاغل التي لا تعود علي بأية فائدة.

قال السيد سميث:

"أعتقد بأنه لم تعد هناك أية فائدة من التحدث معك عن هذا الأمر".

أجابه السيد جونس وهو يضحك:



"وهذا رأيي تمامًا، ما لم يكن بإمكاني إقناعك بأن تَعدُل عن مساعيك الحميدة لأجل السيدة لويد وأن تَعمد إلى الاهتمام بشئونك الخاصة كرجل عاقل".

قال السيد سميث: "عِمت صباحًا".

أجاب السيد جونس: "عِمت صباحًا، وسوف أكون بانتظار سماع تقريرك عن نتيجة مهمتك لدى تلك الأرملة خلال أسبوع أو أسبوعين من الآن".

قال السيد سميث وهو يُغادر المتجر:

"سوف يكون لهذه المهمة فائدتها وأنا أؤكد لك ذلك".

تمتم السيد جونس:

"ستكون لها فائدتها!... سوف يدفع ثمن ذلك، وبشكل باهظ أيضًا، ما لم يُحالفه الحظّ بالحصول على أكثر ما يستحقه".

بعد مغادرة السيد سميث بقليل، دخل إلى متجر السيد جونس رجل شاحب اللون حاد الملامح قلق النظرة.

قال له السيد جونس بعدم كلفة: "أهذا أنت سيد بيركنز أهناك اليوم أمر يستحق الاهتمام؟"

"حسنًا، نعم هناك أمر ما، لدي عملية تستحق النظر".

قال السيد سميث "صديقي بيركنز، هل هناك فائدة من ذلك بالفعل؟ هذا هو الأمر الهام بالنسبة إلي. دعني أجد فيها ما يعود بالفائدة وسوف أتعامل معك".

"بإمكاني أن أحصل لك على خمسين حِصّة من أسهم مؤسسة ريفرلاند للسكك الحديدية وبسعر واحد وثمانين دولارًا فقط للسهم الواحد".

أشرق وجه السيد جونس وسأله:

"هل سيكون بإمكانك ذلك بالفعل؟"

"بإمكاني ذلك".

"حسنًا، سوف أشتريها".

"أعطني كمبيالة صالحة الدفع لستين يومًا وسوف أجعلهم يحوّلون الأسهم لصالحك".

وكان السيد بيركنز قد خرج بعد خمس دقائق من متجر السيد جونس وبيده أربعة آلاف دولار. وبما أن قيمة أسهم مؤسسة ريفرلاند للسكك الحديدية كانت قد ارتفعت بشكل مُطرد في الأشهر الأخيرة، فلم يكن لدى السيد جونس أدنى شكّ من أنه

خلال فترة قصيرة سوف يحصل على ما يُضاعف ثمنها. كان قد اشترى سابقًا البعض منها وبأسعار أخفض من الثمانين دولارًا، لذا فقد بدت له تلك المضاربة آمنة تمامًا، وبأنها تستحق العناء لأنها سوف تعود عليه بفائدة كبيرة...

ثم حدّث السيد جونس نفسه وهو يذرع المتجر جيئة وذهابًا ويفرك يديه بغبطة كبيرة:

"أعتقد أن هذا الأمر يستحق أكثر بكثير من الركض وراء أرامل التجار المُفلسين. لو كنت ذهبت برفقة السيد سميث بتلك المهمة السخيفة، لكنت سأخسر مثل هذه الصفقة. مثل هذه الصفقات لا تسنح دومًا للمرء، مثل هذه الفرص تضيع بسرعة، لكن هذا الرجل (سيد سميث) لا يعرف جيدًا أين تَكمُن مصالحه".

ولم يمر وقت طويل على خروج السيد بيركنز إلى أن دخل إلى متجر السيد جونس تاجر جملة متواضع يدعى آرمور وقال:

"لدي بعض البضائع التي أودّ بيعها هذا الصباح، هل لديك الرغبة بذلك؟"

سأله السيد جونس: "ما الذي لديك هنا؟"

"عشرة صناديق من التبغ. خمسون صندوق من اللحوم، عشر علب سيجار من نوع هافانا، بعض الأرز إلخ...".

كانت تلك بالذات هي الأصناف التي كان السيد جونس يحتاج إليها والتي كان عليه تأمينها خلال يوم أو يومين على الأكثر، لكنه تظاهر بعدم الاكتراث واستفسر عن الأسعار. قام السيد آرمور بإعلامه بالسعر الرائج لتلك البضائع في السوق، لكن السيد جونس أجابه بفتور:

"لست أرغب بها".

قال البائع: "لكن هذه البضائع من الأصناف الممتازة، وليس بإمكانك الحصول على أفضل منها في الأسواق".

أجاب السيد جونس:

"لو كنت بحاجة إليها على الفور لكنت سأقدم إليك عرضًا بأسعار جديدة..."

سأله البائع ببعض الاهتمام:

"ما هو المبلغ الذي بإمكانك أن تعرضه لأجلها؟ لدي اليوم العديد من الالتزامات المادية لذا قد أقايض وأتنازل قليلاً لكي أحصل على المال".

استغرق السيد جونس بالتفكير لبعض الوقت، فلم يكن متأكدًا من أنه سوف يحصل من ذلك البائع الذي يحتاج إلى المال على عرض أفضل من ذلك. ثم قال أخيرًا: "عليك أن تُعلمني بأدنى سعر توافق عليه وسوف أعلمك أنا على الفور فيما إذا كنت سأشتري منك جميع هذه الأصناف. وكما قلت سابقًا لدي مخزون كبير من مثل هذا البضائع".

كم قد يتخلى بعض الرجال عن مبادئ الصدق والشرف لأجل تحصيل قدر ضئيل من الربح!...

وبما أنه كان على البائع أن يُسدد في ذلك اليوم قيمة بعض السندات المالية للمصرف، لذا لم يجد أمامه طريقة للحصول على المال الذي يحتاجه سوى بهذا البيع الجبري وبأقل من سعر السوق وبذلك اضطر، لكي يتأكد من أن عملية البيع ستتم، لأن يقدم للسيد جونس عرضًا بأسعار أخفض بكثير من السعر الرائج في السوق وحتى بأقل من سعر التكلفة.

وكان السيد جونس الذي هو شخص داهية ماكر جدًّا قد تقبل ذلك العرض على اثنين أو ثلاثة من تلك الأصناف لكنه تظاهر بعدم الاهتمام بالأصناف الأخرى لكي يحصل على المزيد من التخفيض في الأسعار، أما الأمر الأهم في الموضوع، فهو أن تلك

الصفقة كانت قد تمت أخيرًا، وبأن السيد جونس الذي باع تلك البضائع على الفور بالسعر الأعلى، كان قد حقق ربحًا قدره مائتي دولار، بينما خسر التاجر الذي باعه البضائع ذات المبلغ نظرًا لما كان فيه من حاجة ماسة إلى المال.

كان السيد جونس قد هنأ نفسه بهذه العبارة "هذا هو الأمر الذي يستحق الاهتمام!.. أتمنى لو أن مثل هذه الصفقة تتكرر عشر مرات قبل نهاية اليوم بدلاً من أن أذهب لزيارة تلك الأرملة".

وسوف نرى الآن ما حدث بعد ذلك.

كان السيد سميث بعد مغادرته متجر زميله قد توجه إلى الفندق الذي علم بأن السيدة لويد تُقيم فيه وسأل عنها. بعد وقت قصير دخلت إلى قاعة استقبال الفندق سيدة بثياب الحداد وبرفقتها ابنتيها، كانت إحداهما فتاة جميلة جدًّا لا تتجاوز العشرين من العمر أما الأخرى فكانت في حوالي الإثني عشر عامًا من عمرها .

قال السيد سميث: "السيدة لويد على ما أعتقد!"

انحنت له السيدة بتهذيب، وبعد أن جلس الجميع قال السيد سميث:

"أدعى سميث. كنت على صلة وثيقة بزوجك عندما كنتم تقيمون في هذه المدينة. اسمحي لي بأن أقدم لك أحرّ التعازي وأن أعرب لك عن تعاطفي مع الألم الذي عانيته بفقدانه".

تلا ذلك فترة تردد استأنف السيد سميث حديثه بالقول:

"عندما علمت بعودتك إلى هذه المدينة، وجدت أن علي أن أزورك لكي أعبّر لك عن استعدادي لتقديم أية خدمات قد تحتاجينها. لو كانت لديك أية مشاريع بالنسبة للمستقبل، ولو كنت بحاجة إلى المشورة أرجو ألا تترددي في طلب ذلك مني بكل حرية، ذلك لأن احترامي لذكرى زوجك وتقديري الرفيع له يجعلني أحرص على راحة وسعادة أرملته وأولاده".

لم تكن في نيّة السيد سميث، عندما قَدم لزيارة تلك الأرملة، أن يعرض مثل هذا العرض السخيّ لتقديم الخدمات، لكن كان هناك في سيماء تلك السيدة الرقيقة ما أوحى له بأنها تتمتع بالاستقلالية والعزم، وبذلك لن يكون عليه أن يخشى من استغلالها لكرم أخلاقه وطيبته.

كانت السيدة قد تأثرت بذلك العرض غير المتوقع مما جعلها تستغرق بعض الوقت للسيطرة على مشاعرها ثم أجابت:

"أشكرك سيدي باسم زوجي الراحل على هذا العرض الكريم غير المتوقع. في الواقع أنا أجد نفسي غريبة بعض الشيء عن هذه المدينة رغم أنني كنت قد عشت فيها في السابق لسنوات. كنت يوم أمس قد سألت عن السيد دوار هانتر، وهو أحد الأصدقاء القدامى المقربين لزوجي، وقد تألمت وأسفت جدًّا عندما علمت بأنه توفي".

"نعم سيدتي، توفي السيد هانتر بالفعل ومنذ حوالي الشهرين".

"كنت أنوي استشارته حول الطريقة التي سأتصرف بها في المستقبل، لكن وفاته جعلتني أشعر بأنه لم يعد لدي في هذه المدينة من بإمكاني اللجوء إليه لكي أحصل على المشورة حول ما علي أن أفعله".

قال السيد سميث بلطف "كان السيد هانتر رجلاً نبيلاً شريفًا، وقد حزننا جميعًا لفقده. لكن هناك آخرون في هذه المدينة من لديهم الاستعداد للاستجابة للمطالب الإنسانية، هناك آخرون مثله ممن يفكرون بالآخرين وبمساعدتهم".

استأنفت السيدة لويد بالقول:

"في الواقع كان الهدف من عودتي إلى هذه المدينة هو افتتاح مشروع تجاري مأمون ومعتدل الربح. كنت قبل وفاة زوجي بوقت قصير، قد ورثت عن طريق قريب بعيد، قطعة أرض صغيرة في نيو أورلينز، وقد قمت مؤخرًا ببيعها وكنت، عملاً بنصيحة وكيل أعمالي هناك، لكي استثمر قيمتها بشراء خمسين سهمًا في شركة ريفرلاند للسكك الحديدية. وقد تم إعلامي بأنه بإمكاني بيعها هنا ببعض الربح. هذه الأسهم الآن بيد سمسار يُدعى بيركنز وقد فوّضته ببيعها بواحد وثمانين دولارًا للسهم الواحد".

قال السيد سميث "لن يجد صعوبة في ذلك سيدتي كنت سأشتريها منك بخمسة وثمانين دولارًا".

ولكن وصل الحديث إلى هذه النقطة بالذات، كان السيد بيركنز قد دخل إلى قاعة استقبال الفندق وقال:

"أهذا أنتها سيد سميث، مررت بمتجرك هذا الصباح لكنني لم أجدك هناك مع الأسف. كان لدي خمسون سهمًا من أسهم شركة ريفرلاند باسم السيدة لويد اعتقدت بأنك قد ترغب بشرائها".

"لم تكن مُخطئًا في اعتقادك، ولكن هل بعت الأسهم؟"

"نعم، عندما لم أجدك في متجرك، شاهدت السيد جونس الذي اشتراها مني على الفور".

"بأي ثمن؟"

"واحد وثمانين دولارًا. لدي هنا شيكًا مؤجلاً لستين يومًا بالمبلغ، وهو أمر جيد جدًّا كما تعلم. لست أعتقد أن على السيدة لويد أن تتردد في قبول مثل هذا العرض إن كانت بحاجة إلى المال وبإمكاني أن أمنحها المبلغ نقدًا على الفور".

ثم نهض وأضاف: "سأتركك الآن سيدة لويد. الأمر يستحق منك الاهتمام وسوف يسرني المرور بك في صباح الغد".

كان السيد سميث عندما استأذن للمغادرة قد لاحظ على وجه الابنة الأكبر سنًّا ابتسامة حياء تنمّ عن الامتنان عبرت عنه بنظرة ظلت في ذهنه لساعات.

عندما عاد السيد سميث إلى متجره بعد بضع ساعات استقبله صديقه السيد جونس بعبارة:

"أعتقد أن الأمر لم يكن يستحق منك العناء".

قال الأخير: "ما الذي تُشير إليه؟"

"كنت أقصد الإشارة إلى زيارتك للأرملة السيدة لويد".

"لِم تقول هذا؟"

"لأنك خسرت بغيابك عن المتجر صفقة كانت بين يديك، وقد حصلت عليها وبإمكاني أن أحقق بها ربحًا قدره مائة دولارِ".

"وما هي تلك الصفقة؟"

"كان لدى السمسار بيركنز خمسون سهمًا من أسهم مؤسسة ريفرلاند للسكك الحديدية كلف ببيعها بواحد وثمانين دولارًا، وكان قد مرّ بك قبل مروره بي، ولم يجدك في مكتبك، لذا عرضها علي وبذلك حصلت عليها. ألم أقل لك بأن زيارتك للسيدة ريفرلاند لا تستحق العناء وبأنها لن تعود عليك بأية فائدة يا صديقي".

أجاب السيد سميث: "ومع ذلك كانت لزيارتي فائدتها ولكن ليس حسب توقعاتك".

"هل كانت كذلك؟"

"نعم".

"ومن أية ناحية".



لكن السيد سميث لم يكن على استعداد للكشف عما في جعبته، وبذلك تهرب من الإجابة بشكل مباشر على السؤال، كان يعلم بأن جاره العديم الرحمة قد يُسيء التصرف لو تفوه بأية كلمة تُعبّر عن سروره بتلك الزيارة وعما فعله أو أنه تطرّق إلى وصف شعور الامتنان الذي لَقيه من الأرملة وابنتها. نعم، كانت لتلك الزيارة فائتها لكنه وعلى كافة الأحوال لن يطلع زميله التاجر على ذلك...

بعد مرور ثلاثة أيام، وبينما كان السيد جونس في مكتبه مستغرقًا بحسابات الربح والخسارة مما جعله لا يشعر بدخول السمسار بيركنز الذي حصل بواسطته على أسهم السيدة لويد إلى المتجر. سأله السمسار على الفور بطريقة جعلت السيد جونس يشعر بالخوف:

"ما هو عدد ما لديك من أسهم شركة كليفلاند؟"

كانت إجابته السريعة: "مائة سهم، ولكن لِم تسأل عن ذلك؟"

"علي أن أعتذر لأن الربح المتوقع عليها لم يعد اليوم كما اعتقدنا".

حدّق به السيد جونس وقد شحب وجهه وبدأ يرتجف وهتف: "ماذا؟"



قال السمسار: "يقولون أن هناك ما هو خطأ في أعمال الشركة، وقد انخفض سعر السهم إلى أقل من خمس وثلاثين دولارًا. لو أردت معرفة رأيي فإن من الأفضل لك أن تبيع هذه الأسهم، فأنا أرى، استنادًا لخبرتي الشخصية، بأن الخسارة الأولى أفضل مما قد يليها من خسائر".

كان من الجلي أن الصفقة خسرت وبكل ما فيها من أحلام ذهبية بتحقيق الربح. وهي الصفقة التي لم تكن ستؤثر على السيد جونس لو أنه عمل بنصيحة صديقه السيد سميث ورافقه لزيارة السيدة لويلد... وبذلك كانت الأسهم الخمسين التي اعتقد بأنه حصل عليها بضربة حظ سوف تصبح على الأغلب ملكية شخص آخر".

ولم يكن قد مرّ على ذلك أسبوع إلى أن أدرك السيد جونس بأن أعماله قد تعرضت أيضًا للخسارة في صفقة أخرى. كانت شاحنة بحمولة من القهوة والسكر قد وصلت إلى المدينة ذات صباح، وكان السيد جونس متأكدًا من أنه سوف يحصل على حمولتها، لكنه لم يكن قد علم بما جرى إلى أن قابل قبطان السفينة في الشارع. هتف السيد جونس وهو يصافح القبطان بحرارة:

"كابتن جاكسون! كيف حالك؟ لم أكن أتوقع أن أحظى بسرور مقابلتك اليوم".

لكن لم تكن علامات السرور قد بدت على القبطان بلقائه السيد جونس، وإنما كان قد صافحه ببرود وقابل ترحيبه بابتسامة فاترة.

سأله السيد جونس: "متى وصلت؟"

"هذا الصباح".

"حقًّا! لِم لم يتم إعلامي بذلك؟ كنت أنتظر قدومك منذ أسبوع".

وكان كل ما فعله القبطان أن التزم الصمت.

سأله السيد جونس: "ألن تمر بمكتبي بعد ظهر اليوم؟"

"لست أعتقد ذلك.."

تلا ذلك فترة صمت شعر خلالها السيد جونس بالإحراج ثم قال:

"ألا تنوي بيعي حمولة سفينتك؟"

أجاب القبطان على الفور وبكل صرامة:

" لا سيدي، أعطيتها اليوم إلى السيد آرمور!"

هتف السيد جونس بدهشة: "هل أعطيتها بالفعل إلى السيد آرمور؟"

قال القبطان: "نعم فهو رجل مستقيم جدًا، أليس كذلك؟"

"أووه... نعم، لست أشك بأنه رجل مستقيم، وسوف يعطيك حقك دون شكّ، لكن لا بد لي من أن أشعر بخيبة الأمل، اعتقدت بأنك كنت مسرورًا بأسلوب التعامل بيننا في الصفقة الأخيرة".

قال القبطان جاكسون: "ليس تماماً سيد جونس، كنت حريّفًا وقاسيًا معي بعض الشيء، أو بالأحرى كنت متلهفًا لتحصيل أكثر ما بإمكانك من الربح وللاستفادة من تلك الصفقة دون أية مراعاة لمصلحتي. في الحقيقة كان هذا انطباعي عن التعامل بيننا كما أنني تأكدت أيضاً من ذلك منذ وصولي صباح اليوم".

"قال السيد جونس: "هذا اتهام خطير أيها القبطان. عليك أن توضح لي ما قصدته بذلك".

قال القبطان بجديّة: "سيدي، أنا رجل مستقيم كما أنني ممن يتحدثون بكل وضوح وصراحة، الحقيقة وكما قلت، أعتقد بأنك كنت قد استغليتني في المرة السابقة. ولكن كنت مع ذلك قد قررت أن أحاول التعامل معك مرة أخرى لكي أتأكد من تصرفاتك، لكن ما حدث هو أنني عندما كنت في طريقي إلى متجرك هذا الصباح،

التقيت بصديق قديم يعمل هنا وسألته عن رأيه بك وبمدى صدقك في التعامل وكانت إجابته:

"إنه ممن يستغلّون حاجة الآخرين".

وعندما قلت: "لا أعتقد أنه قد يستغلّني لكي يحصل على فائدة مُفرطة، قال لي صديقي:

"علي أن أقول، مع كل أسف، بأن فكرتك عن الربح الذي يستحقه التاجر والبائع لا تتناسب مع فكرة السيد جونس عن هذا الأمر".

ثم روى لي كيف كنت قد استغليت حاجة آرمور للمال في الأسبوع الماضي بأن أخذت منه كمية كبيرة من البضائع بأقل من ثمنها الحقيقي بمائتي دولار. ثم ذهبت بعد ذلك لمقابلة آرمور، عندما أكدّ لي ما حصل، أعطيته شحنة سفينتي. سوف يكون بإمكانه بذلك أن يُعوّض خسائره، بما سيحصل عليه من عمولات في الصفقة التي تمت معك، كما سيحصل بالإضافة إلى ذلك على بعض الربح بمئات الدولارات. أنا لا أحب التعامل مع الأشخاص الذين يستغلون الآخرين. هل اكتفيت بهذا التفسير؟

قال السيد جونس وهو ينصرف: "لا بأس عِمت صباحًا".

انحنى له القبطان وأجاب " عِمت صباحًا "ثم ذهب كل من الرجلين في طريقه.

همهم السيد جونس وهو يصّر على أسنانه مستخدمًا عبارته الاعتيادية حتى وهو في حالة الخزي التي كان فيها:

" لم تستحق تلك الصفقة العناء، لم أحصل على أية فائدة".

في الحقيقة نعم، ليست هناك أية فائدة من مثل هذا النوع من الصفقات، فقد تبدو من النوع الذي يُحقق الربح لكن النتيجة تكون الخسارة ... فإن لم يكن ذلك بخسارة المال فسوف يكون بخسارة ما يجب أن تكون له قيمة أثمن من جميع ثروات العالم، خسارة المرء لاستقامته ولاحترامه لذاته ولاحترام الآخرين له...

وفي مساء ذلك اليوم كان هناك في منزل السيد سميث اجتماع بهيج لمجموعة من الأشخاص مؤلفة من السيدة لويلد وابنتيها. كانت السيدة لويد بناء على نصيحة السيد سميث وببعض المساعدة من قِبله، قد تمكنت من شراء منزل بسعر جيد بمبلغ ثلاثة آلاف دولار، وكان الطابق الأول من المنزل قد خُصّص للمتجر الذي كانت السيدة لويد تعتزم افتتاحه لكي تستثمر فيه أموالها.

كما كان قد تبيّن من خلال المقابلات التي تمت بين السيد سميث والابنة الأكبر سنًّا للسيدة لويد، أن هناك الكثير من التوافق بينهما في الطباع انتهى بارتباطهما، وكان السيد سميث عندما شاهد ما كانت فيه تلك العائلة من سعادة بعد استقرارها، وبما لمسه منها من شعور بالامتنان، قد شعر بارتياح لم يسبق أن شعر بمثله، وهو شعور الرضى الرجل الذي يجد المَكسب الحقيقي بمقدار ما يقدّمه للآخرين بصفاء نيّة وغيرية وهو شعور النفس المطمئنة.

هل يستحق الأمر العناء؟ هل سيعود بالفائدة؟ هذا هو السؤال الذي نسمعه هل يستحق الأمر العناء؟ لكن السؤال الذي لا بدّ أن يطرح نفسه بعد ذلك "هل كان الأمر قد استحقبالفعل العناء؟!..."

***

مساعدة الفقراء

Helping the poor

قال السيد جونس وهو يقتحم متجر زميله بريسكوت:

"أقوم الآن بمهمة الاستجداء لصالح عائلة مِعوزة جدًا، وبما أنك من الأشخاص المُحسنين، فأنا آمل أن أحصل منك على خمسة دولارات على الأقل لمساعدة تلك العائلة. كانت زوجتي قد علمت أمس بظروفهم، وبالقليل مما اطلعنا عليه، كنا قد شعرنا بالكثير من التعاطف نحوهم. لذا فأنا أتولى الآن مهمة جمع التبرعات لتأمين بعض الموارد المالية لأجلهم. أرجو أن أتمكن من جمع مبلغ قد يكفي لشراء بعض الاحتياجات الضرورية الفورية: طن من الفحم، وكيس طحين. وصندوق من البطاطا وكمية من بعض الخضار، وغير ذلك من الاحتياجات اليومية الضرورية.

سأله السيد بريسكوت ببعض البرود:

"هل تعلم شيئًا عن العائلة التي تقترح جمع التبرعات لأجلها؟"

قال السيد جونس ببعض الانفعال:

"كل ما أعرفه أنهم في حالة شديدة من الفقر، وبأن الواجب الإنساني الأول للمرء أن يُقدّم المساعدة لمن يحتاج إليها".

قال السيد بريسكوت: "لست أسأل عن مثل هذا الاستنتاج، لا شكّ أن مساعدة المحتاجين من إخواننا في الإنسانية واجب كل منا، لكن هنا كموضوع هام علينا أن نأخذه بعين الاعتبار بما يتعلق بمفهوم الفقر وبما علينا أن نقوم به لمساعدة الفقراء".

كان السيد جونس قد بدأ يشعربالكثير من الغيظ من تلك الإجابة المُثبطة لحماسه لفعل الخير وبذلك قال:

"ما الذي تعنيه بحق اللّٰه؟"

قال السيد بريسكوت: "وكيف سيتم ذلك".

أجاب السيد جونس مُستشهدًا بما ورد في الكتب المقدسة "إن كان هناك من هو جائع فلتمنحه القوت. وإن كان هناك من هو عارٍ فلتمنحه الكساء. لا أعتقد أن هناك مجال للشكّ أو للتساؤل في مثل هذا الأمر. فحسبما ما تم إعلامي به، هذه العائلة تفتقر

إلى كل مستلزمات الحياة وبإمكاني أن أدرك بوضوح بأن الواجب يقتضي تقديم المساعدة لها بتأمين احتياجاتها".

سأله السيد بريسكوت:

"كم يبلغ عدد أفراد تلك العائلة؟"

"هناك رجل وزوجته وثلاثة أو أربعة أولاد".

"هل الرجل من النوع المُجد والمُتزن؟"

"لست أعرف شيئًا عنه، وليس لدي الوقت للاستعلام عن ذلك. كل ما أعرفه أنهم يشكون من البرد والجوع، أو أنهم كانوا أمس يشكون من البرد والجوع".

"هذا يعني بأنك كنت قد قدمت إليهم المساعدة".

"نعم، كنت قد منحتهم بعض المساعدة المؤقتة. لم يكن بإمكاني أن أنام ليلة الأمس، بعد ما عرفته عنهم، دون أن أرسل إليهم على الأقل بعض الوقود وبعض المؤن".

قال السيد جونس: "أنا أقدر لك جدًا طيبة قلبك. لقد تصرفت بالشكل الصحيح، لكنني، على الرغم من إيماني بالإنسانية وبحكمة ما تعتز القيام به، أرى بأن الطريقة الحقيقية لمساعدة الفقراء هي بأنُ نتيح لهم فرصة مساعدة أنفسهم. أما مجرد

منحهم الهبات والصدقات فأنا أرى بأن مثل هذا الأمر قد يكون له، في كثيرمن الأحوال أثرًا سلبيًّا عليهم بأن يُشجعهم على البطالة وعلى الرذيلة أو على التخاذل والتواكل على الآخرين وعدم احترام الذات".

لدى كل شخص قوة داخلية فطرية علينا أن نبحث عن تنميتها وعلى دعمها بدلاً من أن نكتفي بتقديم بعض المساعدة المؤقتة له، لأن في ذلك ما سيجعله يتخاذل من جديد بمجرد توقفنا عن تقديم العون له. لذا فأنا أرى بأن ما تسعى إليه، بمجرد جمع التبرعات لهم ليس بالإحسان الحقيقي لهم...

"لدى كل شخص إمكانية العمل في خدمة المجتمع، ولا بد أن يحصل لقاء تلك الخدمة على الموارد التي تؤمن له سُبل العيش الكريم".

قال السيد جونس: "لكن لنفترض أن هذا الرجل ليس بإمكانه أن يعمل فكيف سيكون بإمكانه أن يخدم المجتمع لأجل الحصول على الأجر".

قال السيد بريسكوت: "الإحسان الحقيقي للفقراء يجب أن يكون بتأمين العمل لهم وليس بالاكتفاء بمنحهم الصدقات".

"ولكن ماذا إن لم يكن بالإمكان تأمين العمل لهم؟"

"أنت تجعل من الأمرحالة ميؤوس منها تمامًا. هناك في هذه المدينة الكثير من الأعمال ولكل من يرغب بالعمل".

"أنا على استعداد تام للقبول بهذه النظرية.."

"حسنًا، لنتعامل مع الأمر على أساس الفرضيات والعموميات، لأن بإمكان المرء أن يقبل أو أن يرفض أي أمر. لكن دعنا نُمعن النظر في هذه الحالة بالذات لكي نُحدد واجبنا تجاه تأمين احتياجات تلك العائلة، ولكي نُحدد ما هو الأفضل بالنسبة إليهم: فهل سيكون ذلك بأن تتم مساعدتهم بالطريقة التي اقترحتها، أم بأن يتم تشجيعهم على مساعدة أنفسهم؟..."

قال السيد جونس الذي كان قد بدأ يشعر بالضيق إلى حدّ كبير:

"كل ما أعرفه عنهم في الوقت الحاضر أنهم يُعانون من نقص المستلزمات والاحتياجات الضرورية للحياة. من السهل جدًا أن نطلب من المرء أن يُساعد نفسه ولكن ماذا لو كانت يدّ ذلك الرجل مشلولة؟ لا بد أنه سيموت من الجوع، لو تعاملنا معه بهذا الأسلوب من الإحسان. أطعم الجائع واكس العاري، قبل أن تطلب منه أن يعمل لكي يساعد نفسه، إذا أردت أن تكون لديه القدرة على العمل والرغبة في العمل".

قال السيد بريسكوت:

"يبدو ما قلته جيدًا سيد جونس، ومع ذلك فأنا لا أرى في ذلك المعنى الحقيقي أو المفيد للإحسان كما قد يبدو لك ... وعلى كافة الأحوال لا فائدة من مناقشتنا لهذا الأمر الآن خلال ساعات العمل، فلكل من وقتك ووقتي قيمته لذا لا داعٍ من إضاعة وقتنا بمناقشات عقيمة. ليس بإمكاني أن أتفهم ما قلته ويؤسفني أن أخيّب ظنك في مثل هذا الأمر".

قال السيد جونس وهو يُحييه ببرود ويخرج من المتجر:

"فإذن عِمت صباحًا سيد بريسكوت.."

أجاب السيد بريسكوت: "ِمت صباحًا"

ثم حدّث السيد جونس نفسه وهو يتوجه بسرعة إلى خارج المتجر:

"كل ما قاله ليس سوى حجة ماكرة كي لا يُساهم بالمساعدة. لست أؤمن كثيرًا بنزعة الخير لدى أمثال هؤلاء الرجال الذين لديهم الكثير من التساؤلات حول لِم وأين وكيف ومتى... فهو يخشى من أن يمنح دولارًا واحدًا لفقير يتضوّر من الجوع، بحجة أن في ذلك ما سيشجعه على البطالة وعلى السير في طريق الرذيلة".

ولكن صادف أن كانت للشخص الآخر الذي مرّ به السيد جونس بعد ذلك، ذات طريقة التفكير حول الموضوع. كما صادف أن كان ذلك الشخص على اطلاع على بعض الأمور المتعلقة بتلك العائلة التي كان السيد جونس يطلب لها المساعدة، وكان ما قاله عندما أطلعه على مهمته:

"ليسوا سوى جماعة من الكسالى المتشردين! وهم يُفضلون الحاجة على العمل. بإمكانهم أن يموتوا جوعًا، فلن أمنحهم شلنًا واحدًا".

سأله السيد جونس بدهشة "أهذا صحيح؟"

"بالتأكيد، هذا هو الواقع! كنت سابقًاقد أعلمت بوضعهم، ولكثرة ما شعرت نحوهم بالإشفاق ذهبت إليهم على الفور وأنا أحمل بعض المؤن رغم أنها كانت ليلة شديدة البرودة كان المطر يتساقط فيها بغزارة. ولكن ما الذي استنتجته من تلك الزيارة؟... لن أضيف شيئًا... لأنني لا أريد ذلك...دعهم يعملون..."

سأله السيد جونس:

"لكن هل بإمكان ذلك الرجل أن يحصل على عمل".

"لا بدّ أن بإمكانه أن يحصل على عمل مثله مثل غيره من الرجال الفقراء ممن تعتمد عليهم عائلاتهم. عندما تكون هناك إرادة لا بدّ أن تكون هناك طريقة...الكسل هو المرض في جميع الحالات المماثلة والعلاج الأفضل والأكثر فائدة لمثل هؤلاء هو بعض الجوع الصحّي المفيد".

وبذلك عاد السيد جونس إلى متجره وهو في حالة من الغيظ، كان قد تم إخماد كل ما كان يشعر به من مشاعر التعاطف ومن النزعة إلى الخير. كان قد شعر بالغضب نحو تلك العائلة الفقيرة وكذلك بالغضب من نفسه لأنه كان ذلك المخبول الذي تدخل بما لا يُعنيه. حدّث نفسه بسخط:

"لن أقوم بمثل هذه المهمة ثانية، ولن أقوم بأي عمل مفيد بعد الآن وطوال حياتي".

وفي الوقت الذي كان فيه يُحدث نفسه دخل إلى متجره جاره السيد بريسكوت وسأله:

"أين تُقيم تلك العائلة الفقيرة التي كنت تتحدث عنها؟"

أجاب السيد جونس بغضب "لا تسألني عنهم، لقد اكتشفت للتو كل شيء عنهم وعلمت بأنهم جماعة من الكسالى المتشردين".

"هل أنت متأكد من ذلك؟"

"كل التأكيد. السيد كادي يعرف كل شيء عنهم معرفة جيدة تمامًا. من الأفضل لهم أن يبحثوا عن عمل. بالنسبة إلي، لقد اقتنعت بما قاله بأن من الأفضل لهم أن يتضوروا جوعًا لأن هذا الأمر سيعود عليهم بالفائدة".

لكن السيد بريسكوت كان قد سجل مذكرة بالمعلومات عن الشارع وعن رقم المبنى الذي تعيش فيه تلك العائلة، دون أن يلتفت إلى تلك الإفادة المثبطة للهمّة ثم قال لزميله قبل مغادرته متجره:

"سمعت للتو أن هناك حاجة لخدمات رجل قوي البنية، قد يرغب السيد غاردينر، كما سميته، بالحصول على هذا العمل".

"أجابه السيد جونس الذي كان ذهنه قد شُحن ضدّ ذلك الرجل:

"لن يرغب بالعمل، هذا ما علمته عنه".

قال السيد بريسكوت:



"من الأفضل للمرء أن يكسب دولارًا واحدًا من عمله، من أن يحصل على دولارين من يد الإحسان. لأنه بذلك سوف يشعر بأن المبلغ الذي حصل عليه من حقه وبأن له الحق باقتنائه. كما أن في ذلك ما يرفع من قيمته الأخلاقية وما يجعله يشعر بالاحترام لنفسه وما يشجعه على بذل المزيد من الجهد. أما ما يحصل عليه المرء عن طريق الإحسان فلا بدّ أن يؤدي إلى إضعاف معنوياته وإلى إفساده، لأنه لا بدّ أن يتسبب في تلبّد إحساسه وبعدم احترامه لنفسه من جهة، كما أنه من جهة أخرى سوف يُعزّز لديه التواكل والبطالة وقد يقوده أيضًا إلى طريق الرذيلة... الإحسان الحقيقي إلى الفقراء يكون بمساعدتهم على مساعدة أنفسهم. كنت قد أمعنت التفكير بهذا الأمر بعد مغادرتك متجري، وعندما وجدت بأن هناك حاجة إلى رجل قوي البنية، كما سبق وأعلمتك، فقد وجدت أن أمرّ بك لكي أعلمك بذلك لأجل السيد غاردينر. سوف تكون بهذه الطريقة قد أحسنت إليه وقدمت له خدمة حقيقية".

أجاب السيد جونس بقناعة تامة:

"لن تكون هناك أية فائدة من ذلك، فهو رجل تافه كسول لا يصلح لشيء ولن أتعامل معه".

لم يُصرّ السيد بريسكوت على الأمر لأنه أدرك بأنه لم تعد هناك فائدة من ذلك لذا كان وهو في طريقه إلى متجره قد مرّ بنفسه بالسيد غاردينر.

عندما دخل السيد بريسكوت إلى ذلك المكان كان ما شاهده رجلاً وزوجته ومعهما ثلاثة أطفال في منزل يتألف من غرفتين فقط يوحي بفقر شديد، والأسوأ من ذلك أن المكان كان في غاية القذارة والفوضى. كانت المرأة والأطفال الثلاثة بالتأكيد بصحّة جيدة، لكن الرجل كان على ما يبدو يُعاني من مرض تسبب له بهزال شديد. كان نحيلاً شاحب الوجه تُحيط بعينيه الهالات السوداء، وبذلك كان بعيدًا كل البُعد عن أن يكون أهلاً لعمل يحتاج إلى بنية قوية كما كانت توقعات السيد بريسكوت.

ولدى دخول السيد بريسكوت إلى تلك الغرفة المثيرة للشفقة التي تجمعت فيها تلك العائلة البائسة، كانت وجوه الجميع قد أشرقت بفرحة الأمل، لكن نظراتهم كانت مع ذلك مشوبة بظلال من المعاناة الطويلة الصامتة...

وبما أنه كان من النوع الدقيق الملاحظة، فقد لاحظ وبنظرة واحدة ما يمكن أن يثيره ذلك التوسل على وجه كل منهم من التعاطف مع ظروفهم البائسة.

ناولته المرأة كرسيًا بعد أن نظفت الغبار عنه بطرف ثوبها. جلس عليه وقال:

"تبدو عليكم مظاهر الفقر والبؤس".

أجابت المرأة بصوت أشبه بالنحيب:

"هذا هو الوضع سيدي، نحن في غاية البؤس، لم يعمل جون منذ أكثر من ثلاثة أشهر، و..."

قاطعها السيد بريسكوت بالقول: "لماذا؟"

قال الرجل: "لأن وضعي الصحي سيء جدًا فأنا أعاني كثيرًا من ألم في ظهري وفي جنبي وأشعر بالضعف بحيث ليس بإمكاني حتى أن أزحف".

قال السيد بريسكوت: وهو يتفحص وجوه كل من المرأة والأطفال:

"هذا بالتأكيد أمر مؤسف، ومؤسف جدًا" ثم سألها "هل يقوم هذا الفتى بأي عمل؟"

أجابت الأم "لا سيدي، لا زال صغير السن جدًا لكي يصلح لأي عمل".

"بإمكاني أن أتوقع بالنظر إليه بأنه في حوالي الثالثة عشر".

"هو أكبر سنًا بقليل".

"هل يذهب إلى المدرسة؟"

"لا سيدي، ليس لديه من الملابس ما يليق بذهابه إلى المدرسة".

قال السيد بريسكوت: "هذا مؤسف، مؤسف جدًا بالفعل. كما أن بإمكان الفتى أن يحصل على دولارين في الأسبوع بدلاً من أن يبقى عاطلاً عن العمل مما قد يؤدي به إلى الفساد".

بدا على السيد غاردينر بعض الارتباك على إثر سماعه هذه الملاحظة، وهذا ما كان أيضًا من زوجته التي لم تشعر بالراحة تمامًا أمام النظرة المُتفحّصة التي ألقاها عليها السيد بريسكوت والذي قال بعد ذلك:

"تبدين بصحة جيدة سيدة غاردينر".

أجابت المرأة "نعم سيدي، شكرًا لله على هذا الأمر. لست أدري كيف كنت سأتدبر الأمور لولا ذلك، فقد أصبح كل شيء على كاهلي منذ إصابة جون بهذا المرض .."

ثم نظر السيد بريسكوت حول الغرفة وقال على سبيل الدعابة "لكنك كما أرى لا تستفيدين جيدًا من مقدرتك ومن صحتك الجيدة".

فهمت المرأة ما قصده بتلك الملاحظة واصطبغ وجهها بالحمرة.

ثم قال الضيف بأكثر من جديّة لا يوجد أي مبرر لهذه القذارة والفوضى هنا. كنت ذات مرّة قد زرت سيدة أرملة كانت في حالة صحية سيئة جدًا مما يجعلها تضطر إلى البقاء في الفراش نصف الوقت، لكنها كانت مع ذلك تكسب عيشها مع طفليها الصغيرين بأعمال التطريز التي تقوم بها طوال اليوم وحتى وهي في فراشها. كما أنني لم أكن شاهدت قطّ غرفة بمثل تلك الغرفة من ناحية النظافة والترتيب. كما أن أولادها كانوا في غاية الترتيب والنظافة رغم تواضع ملابسهم. كم يبدو الأمر مختلفًا هنا، كنت عندما دخلت إلى هذه الغرفة قد وجدتكم جميعًا جالسين في هذه الفوضى، ويجب أن أقول بكل صراحة، وفي هذه القذارة..."

كانت المرأة التي ازداد احمرار وجهها قد نهضت على الفور وبدأت تُزيل الغبار وتُعيد الترتيب في أركان الغرفة، وبذلك كانت الغرفة قد بدأت تبدو خلال لحظات أقل قذارة وفوضى مما كانت عليه. كان ذلك بالطبع نتيجة تعنيف الضيف الذي وجد في ذلك بادرة مشجّعة، عادت المرأة إلى مقعدها قال لها السيد بريسكوت: "دعيني الآن أعلمك بهذه الحكمة عن تعريف الفقر":

بإمكان كل فقير أن يُقلّل من فقره كما أنه قد يتخلص تمامًا من حالة الفقر ذلك لأن الله تعالى يُساعد من يُساعدون أنفسهم. ولكي أكون صريحًا تمامًا، فأنا أرى بكل

وضوح بأنكم لا تحاولون مساعدة أنفسكم، وبما أن الأمر بهذا الشكل، فليس عليكم أن تتوقّعوا الحصول على المساعدة دون مبرر. كنت قد علمت منذ قليل بأنكم كنتم مساء الأمس قد حصلتم على بعض الوقود وعلى بعض المؤن من أحد المُحسنين وبأنه وعدكم بالمرور اليوم وبتأمين المزيد من هذه المساعدات. لكنكم لم تسمعوا منه بعد أليس كذلك؟ والأكثر من ذلك علي أن أعلمكم بأن عليكم ألا تتوقعوا قدومه بعد الآن... فقد صادف أن كان أحد الأشخاص الذين طلب منهم المساهمة بتقديم المساعدات لكم، على علم بوضعكم أكثر مما كان يعرفه، وكان ذلك الشخص قد أطلق عليكم بكل وضوح صفة "جماعة من المُشردين من العاطلين عن العمل!... " فكّروا فقط بمعنى هذه التسمية! ... لذا تخلى عن الأمر على الفور ولن تحصلوا منه على أية مساعدة، كما أنني كنت أيضًا أحد من طلب منهم المساهمة...

والآن، إن كنتم على استعداد لمساعدة أنفسكم فسوف أحاول تقديم العون لكم والوقوف إلى جانبكم بصفة صديق، وإلا فلن تكون لي أية علاقة بكم بعد الآن. أنا أتحدث إليكم بكل وضوح، هذا من الأفضل لكم وسوف يكون أقل خطورة من شرّ مُرتقب. على هذا الولد الأكبر أن يعمل لكي يكسب بعض المال، كما أن بإمكان ابنتك أن تساعدك في الأعمال المنزلية بينما تقومين أسبوع، عمل في غسيل

الملابس أو في أعمال التنظيف لدى إحدى العائلات، وسوف تحصلين بذلك على دولارين أو على ثلاثة دولارات في الأسبوع. وبهذا الدخل لن تكون هناك أية خطورة من تعرّضكم جميعًا إلى التضور جوعًا كما أنكم بذلك ستأكلون مما تكسبونه من عملكم دون أن يكون لأحدكم أية تبعية للآخرين. وقد يكون بإمكان السيد غاردينر أيضًا أن يساعد في شيء ما، ولست أشك مطلقًا بذلك". ثم نظر بتساؤل إلى السيد غاردينر.

قال السيد غاردينر بنوع من التخاذل: "هذا لو كنت فقط قوي البنية"

"وحتى لو لم تكن قوّي البنية، هناك مع ذلك الكثير من الأشياء التي بإمكانك القيام بها لكي تحصل على دولارين أو على ثلاثة دولارات في الأسبوع. وسوف يكون ذلك أفضل من جلوسك هكذا عاطلاً عن العمل.

سوف يكون دخلكم الأسبوعي بالدولارين اللذين ستحصل عليهما زوجتك كل أسبوع، بالإضافة إلى الدولارين اللذين سيحصل عليهما ابنك، والثلاثة دولارات التي سوف تحصل عليها أنت سبعة دولارات أسبوعيًّا. وأعتقد بأنكم لا تحصلون حاليًا بالاستجداء على نصف هذا المبلغ أليس كذلك؟..."

قالت المرأة "هذا بالفعل سيدي. ما تقوله هو الواقع والحقيقة".

"جيد جدًّا، أصبحمن الواضح بالنسبة إليكم الآن بأن العمل أفضل من البطالة ومن الاستجداء".

قالت المرأة من جديد "لكنني لا أعتقد بأنه سيكون بإمكاننا أن نحصل على العمل؟"

"لا أصدق كلمة واحدة مما قلت. بإمكاني أن أعلمك على الفور عن كيفية الحصول على نصف دولار يوميًا خلال الأيام الخمس المقبلة وسوف تكون تلك هي البداية بالنسبة إليك، البداية التي سوف تضعك على طريق العمل المفيد، كما أنك لن تجدي أية صعوبة بعد ذلك".

سألته المرأة "وما هو نوع هذا العمل، سيدي؟"

"نحن بصدد الانتقال إلى منزل جديد وقد بدأت زوجتي بتنظيف المنزل لكنها سوف تكون بحاجة إلى المساعدة، فهل ترغبين المجيء لمساعدتها؟"

سألته المرأة عن عنوان المنزل ووعدته بقبول العرض.



"قال السيد بريسكوت بسرور: "سوف تشعرين بالراحة بالعمل لدينا. سوف أدفع لك أجرك في نهاية كل يوم عمل، كما أنك ستحصلين على جميع وجباتك لدينا وسوف تجدين متعة حقيقية في ذلك. كوني على يقين بأن رغيفًا واحدًا نحصل عليه بجهدنا أشهى من أفضل طعام قد يحصل عليه المرء من يدّ الإحسان كما أنه أيضًا أكثر فائدة للصحة".

قال غاردينر الذي كان ذهنه الخامل قد أصبح أكثر توقدًا: "وماذا عن الفتى سيدي؟"

قال السيد بريسكوت وهو يبتسم:

"كل شيء في وقته. فكما تعلم لم يتم بناء روما في يوم واحد... دعنا الآن نؤمن لزوجتك البداية، لو جاءت زوجتك غداً فسوف أفكر بالأمر، لأنها بذلك سوف تثبت ليأنها قررت مساعدة نفسها وبأنها تستحق مساعدة الآخرين... سوف يأتي الباقي في الوقت المناسب وبالترتيب، لكن بإمكانك أن تتأكد بأنها إن لم تأت لكي تعمل غدًا فسوف يكون ذلك نهاية علاقتنا معًا. والآن عمتم مساء".

وكانت السيدة غاردينر قد جاءت بالفعل إلى منزل عائلة بريسكوت بوقت مُبكر من صباح اليوم التالي، كما أنها كانت تبدو أكثر ترتيبًا مما كانت عليه في اليوم السابق. وبما أنها سيدة قوية البنية وبدينة تعلم كيف تنظف الأرضية وتزيل عنها آثار الطلاء، فقد عملت بكل هِمة ونشاط مما جعل السيدة بريسكوت تشعر بالرضى. وبذلك كانت قد منحتها الأجر المستحق لها (نصف دولار). كما أن السيدة غاردينر كانت في اليوم التالي قد جاءت من جديد لكي تعمل وتحصل على الأجر.

وبذلك كان السيد بريسكوت في مساء اليوم الثالث قد شعر بأن الوقت قد حان لزيارته عائلة غاردينر.

كان قد لاحظ على الفور من إلقاءه نظرة سريعة على الغرفة بأنها لم تعد تُشبه الغرفة التي كان قد شاهدها في زيارته الأولى لهم منذ ثلاثة أيام وبذلك قال لهم بسرور:

"حسنًا، هذا يدعو للتفاؤل".

كان كل شيء في الغرفة نظيفًا وفي مكانه المناسب، وكان جميع من في المنزل في غاية الترتيب والنظافة. كانت السيدة غاردينر جالسة أمام طاولة ترتق الثياب وكانت

ابنتها تُنظف أطباق العشاء، كما كان السيد غاردينر جالسًا إلى جانب ابنه الأصغر يُلقنه كيفية لفظ الكلمات.

وكان وجه الجميع قد أشرق لدى سماعهم العبارة التي صدرت عن السيد بريسكوت، وكانوا قد شعروا بسرور لم يسبق أن شعروا بمثله منذ زمن طويل، ذلك لأن شعلة احترام الذات والاعتماد على الذات كانت قد أضرمت في قلوبهم من جديد.

استأنف السيد بريسكوت حديثه بالقول:

"أشعر بالكثير من السرور، لأنكم خطوتم الآن خطوة ثابتة باتجاه الطريق الصحيح. عليكم أن تستمروا في هذا الطريق بثبات وشجاعة ودون توانٍ، وسوف يكون بانتظاركم الكثير من الراحة والسعادة".

ثم قال: "أعتقد بأنني حصلت على العمل المناسب لابنكم. سوف يحصل على دولار ونصف في الأسبوع وهذا في البداية فقط، لكنه لو أثبت جدارته فسوف يحصل بعد بضعة أشهر على دولارين أسبوعيًّا، كما أن العمل سهل وهناك فرصة كبيرة للتطور فيه".

ثم التفت إلى السيد غاردينر وقال:

"أعتقد أن هناك فرصة جيدة بالنسبة إليك أيضًا سيد غاردينر. هو عمل سهل ولن يكون لأكثر من خمس أو ست ساعات في اليوم، وسوف تحصل لقاء ذلك على أربعة دولارات في الأسبوع، وهذا أيضًا في البداية، ففي حال إثباتك جدارتك سوف يتم رفع الأجر إلى ستة أو سبعة دولارات في الأسبوع ما رأيك؟"

قال الرجل الفقير الذي كانت كرامته واستقلاليته قد عادت إليه من جديد:

"إن كنت ستفعل ذلك لأجلي فسوف تكون قد أحسنت إلي بالفعل".

قال السيد بريسكوت بإيجابية: "سوف أفعل ذلك. ألم أكن قد وعدتك بذلك. ألم أقل لك بأن الله يساعد من يساعدون أنفسهم؟ وبأن كل من هو على استعداد للعمل لا بدّ أن يلقى السعادة لأن ما يكسبه المرء بالعمل الشريف يشتري له ألذّ القوت".

ولكي تستمر تلك العائلة في سيرها طريق الصلاح، كان لا بدّ من أن تكون هناك بعض الرقابة والمتابعة والإرشاد من قبل كل من السيد بريسكوت وزوجته، ذلك لأن العادات القديمة والميول السابقة المتأصّلة في النفوس لا بدّ أن يكون لها تأثيرها على المرء، وبذلك فليس من السهل التخلص منها. ولولا تلك الرقابة لكانت البطالة والاعتماد على الآخرين قد انتصرا عليهم من جديد...

سوف يُدهش القارئ عندما سيعلم بأنه خلال ثلاث أو أربع سنوات كانت عائلة غاردينر قد انتقلت إلى بيت صغير متواضع خاص بها، وبأن كل منهم كان مسرورًا سعيدًا بما يقوم به من عمل. كما أن صحة السيد غاردينر كانت قد تحسنت بدلاً من أن تكون قد تراجعت نتيجة قلّة الحركة والنشاط.

وهكذا نرى بأن أسلوب السيد بريسكوت في مساعدة تلك العائلة الفقيرة كان هو الأسلوب السليم القويم، ذلك لأنه ساعدهم على الاعتماد على أنفسهم. وبأن منح المساعدات الخيرية ليس سوى مساعدة مؤقتة تحرم المرء من استقلاليته، وعلينا أن نُدرك بأن الأسلوب السليم لمساعدة الفقراء يجب أن يكون بمساعدهم على الوقوف على أقدامهم وعلى شقّ طريقهم في الحياة بالاعتماد على أنفسهم، وبأن هذا هو الأسلوب الذي يجعلهم يُحافظون أيضًا على كرامتهم...

***

السبيل إلى السعادة

How to be happy

السيد كليفلاند أرمل عجوز غريب الأطوار يعيش بمفرده - في مستعمرته الزنوج. كما يُقال عنه. ذلك لأنه الرجل الأبيض الوحيد في المنطقة الذي لديه العديد من الخدم الزنوج، وهو في أعماقه طيب القلب رقيق المشاعر، لكن لديه بذات الوقت نزواته ودوافعه الشاذة وتصرفاته الفظّة المروعة. لذا عليك أن تترك له دومًا حرية التصرف بطريقته الخاصة الشاذة، ولو أنك حاولت فقط أن تُملي عليه أحد الأمور، أو حتى أن تقترح عليه طريقة سلوك معينة، فلتكن على يقين بأنك سوف تُهزم حتى لو كانت مقترحاتك صائبة وآرائك حكيمة.

كانت روح المعارضة قد تملّكته على ما يبدو إلى حدّ كبير، مما جعله في كثير من الأحيان يُدير ظهره إلى ما تقوله لكي يسارع بعرض ما يخالف أفكارك ثم يبدأ بالدفاع عن

صواب تلك الآراء بكل حماس وعناد حتى لو كان ذلك لمجرد أن شخصًا آخرًا قد تجرأ على محاولة إثباتها.

كان السيد كليفلاند جالسًا في تلك الليلة الشديدة البرودة في مقعده المريح أمام الموقد. كان هناك ما ينذر باقتراب عاصفة قوية، كانت الريح تهبّ وتعصف وتُدوّي من خلال الأشجار الضخمة التي تُحيط بالمنزل، ثم تخمد بكآبة بصدى يُشبه الأنين.،وكانت أوراق الأشجار المُتساقطة تضرب الألواح الزجاجية للنوافذ، أما الطيور التي جثمت هناك فلم تكد تقوى على الرفرفة بأجنحتها وكانت تحاول بصعوبة أن تحافظ على توازنها في تلك الرياح الضارية...

شعر السيد كليفلاند بالقلق والتوتر، رمى بالكتاب الذي كان يطالعه وضرب بقدمه أحد مساند النار المشتعلة مما جعل كامل المساند تنقلبثم نادى خادمه توم بصوت يدلّ على نفاذ الصبر.

أطل توم برأسه من الباب بسرعة وقال: "ها أنا هنا سيدي".

قال السيد كليفلاند: "أنت هنا بالفعل، ولكن ما هذه الطريقة في إشعال النار؟"

قال توم: "أعتقد بأنها انقلبت لأنك ضربتها بقدمك سيدي".

"ماذا؟ حسنًا! لنفترض أنني ضربتها بقدمي، لوكنت قد أعددتها بالشكل المناسب لما كانت تتداعى. عليك تثبيتها في الحال!"

الفور، وهو يتلمّس طريقه نحو الموقد:

"سوف أقوم بتثبيتها على الفور، سيدي".

قال السيد كليفلاند:

"حسنًا! عليك تثبيتها دون أن تُكثر من التعليقات، كل ما عليك هو أن تعمل أكثر وأن تتحدث أقل".

أجاب توم: "نعم سيدي".

ثم قال السيد كليفلاند من جديد:

"يبدو أنك سوف تستمر بالردّ على كل ما أقوله. أود أن تكون عصاي إلى جانبي لكي أضربك بها على رأسك".

قال توم وهو يناوله العصا:

"ها هي عصاك سيدي"

قال السيد كليفلاند:

"ضعها جانبًا على الفور. كيف تجرأت على لمس عصاي دون إذن مني؟"

قال توم: "اعتقدت بأنك كنت تريدها سيدي".

قال السيد كليفلاند:

"من الأفضل لك أن تفكر بعملك وأن تتوقف عن الردّ على كلامي وإلا فسوف أجد الطريقة التي ستجعلك تفعل ذلك. أحضر المزيد من الحطب وأشعل النار وأغلق مصاريع النوافذ جيدًا. هل تسمع ما أقوله؟"

قال توم: "نعم سيدي".

قال السيد كليفلاند:

"حسنًا، إن كنت تسمع ما أقوله فلم لم تُجبني؟ كيف سيكون بإمكاني أن أتبيّن أنك سمعت ما قلته إن لم تجبني؟"

قال توم: "اعتقدت بأنك طلبت مني ألا أجيبك سيدي".

قال السيد كليفلاند وهو يتناول عصاه:

"كنت أقول بأن عليك ألا تجبني إن لم تكن هناك ضرورة لذلك. هذا ما قلته".

قال توم وهو يبتسم ابتسامة عريضة ويخرج من الغرفة: "كما تريد سيدي".

كان السيد كليفلاند بشكل عام طيبًا جدًا، رغم ما في طباعه من نفاذ صبر ومن تسرّع. كانا هو وتوم يتشاحنان على الدوام، ومع ذلك فلم يكن بإمكان أحدهما أن يستغنِ عن الآخر، كان توم بطبيعته من النوع الذي يميل إلى الهزل وهو الأمر الذي يتلاءم تمامًا مع مزاج سيده المُتقلب الغريب. وهوأيضًا ما كان يجعله كثيرًا ما يواجه ذلك الاهتياج السريع والمُفرط لسيده، بابتسامة تسامح، لذا كان بالتأكيد بمثابة صمام الأمان للمزاج العصبي المتقلّب، لسيده. كان السيد كليفلاند في تلك الليلة بمزاج سيء جدًا، فعلى الرغم من أنه في أعماق نفسه كان رجلاً كريمًا طيب القلب، كما سبق وأشرنا، لكنه نتيجة لما تعرّض إليه في مطلع حياته من الكثير من المعاناة، وبسبب ما مرّ به من خيبات أمل، كان قد اختار أن يعيش حياته في عزلة تامة مما جعله يعاني جدًا من نقص الحنان. لم تكن مشاعره مُشبعة كما لم تكن موظفة أيضًا. كان قلبه المُعذب يفتقد إلى حدّ كبير إلى التعاطف، وبذلك أصبح مُشاكسًا على الرغم من أنه من النوع الرقيق الإحساس وإلى حدّ بعيد..

نهض السيد كليفلاند وبدأ يتجول في الغرفة ثم فتح النافذة وأخذ ينظر منها إلى تلك الليلة العاصفة. غمغم بتذمر:

"ما هذا الطقس اللعين! من شأن مثل هذا الطقس أن يُفقد المرء صوابه! ومع ذلك لامجال للهروب من كل ذلك ... لقد تعبت من هذه الحياة، ما هو الشيء الذي أعيش لأجله؟ لو كنت سأموت غدًا، فمن الذي سوف يزرف الدموع لأجلي؟"

ثم همس لنفسه: "هذه غلطتك أنت. لا حاجة لأن يشعر الرجل بالوحدة لأن ليس لديه من سيحمل اسمه في هذا العالم، أو لأن ليس لديه من هو من دمه. جميع البشر أخوة، على الرغم أن البعضهم من عرق إنساني أكثر رفعة من الآخرين ... ولكن ما الذي فعلته أنت لمساعدة من هم حولك من الفقراء والمُعوزين والمُعذبين؟ ألن يقول لك الله – عزّ وجلّ – يوم الحساب:

"كنتُ جائعًا ولم تطعمني، كنتُ ظمئًا ولم تُسقني، كنتُ مُتشرّدًا ولم تمنحني المأوى، كنتُ عاريًا ولم تكسُني، وكنتُ مريضًا وفي سجن ولم تَزُرني وترعاني. وبما أنك لم تفعل ذلك لأي من إخوتك في الإنسانية، فأنت لم تكن قد فعلت ذلك لأجلي".

كان ما حدّث به نفسه السيد كليفلاند أشبه بابتهال مباشر صادق إلى الله تعالى، وبذلك لم يكن قد مرّ دون أن يترك أثره في توجيهه إلى ما عليه أن يفعله نفسه. لكنه غمغم لنفسه من جديد:

"حسنًا، ولكن كيف سيكون بإمكاني أن أمتنع عن التقصير في ذلك؟ يعلم الله بأن تقصيري لم يكن بسبب عدم ميلي إلى فعل الخير، وبأنني كنت دومًا على استعداد لأن أمدّ يدي إلى جيبي كلما كانت هناك حاجة للإحسان. ولكن كيف سيكون بإمكاني أن أساعد الفقراء والمحتاجين إن لم يطلبوا مني ذلك؟"

ثم حدثه صوت ضميره من جديد:

"أنت تحاول خداع نفسك، لكن لن يكون بإمكانك أن تخدعني وأن تجعلني أصمت. أنت تعلم بوجود الفقراء وبوجود الكثير من المُعذبين في هذا العالم، وبأن غطرستك كانت قد منعتك من المبادرة إلى مساعدتهم... أهكذا يكون الأسياد؟ أليس على المؤمن أن يبحث عمن يُعانون لكي يساعدهم؟.. أليس عليه أن يشارك الفقراء في طعامه؟ هل عليه أن يكتفي بالجلوس هنا وبالنظر من النافذة في مثل هذه الليلة العاصفة دون أن يفكر بمن يتعرضون لمرارة العيش؟ هل من المطلوب أن يخفق قلب المرء لنفسه فقط في الوقت الذي يكون فيه عليه التفكير بآلاف البؤساء الذين يُناشدون العون والفرج من الله تعالى...

عليك الآن أن تُقرر قبل أن تستلقي على وسادتك المريحة هذه، بأنك، مع بزوغ فجر الغد، سوف تنطلق في طريق مساعدة الفقراء".

استمر السيد كليفلاند في الهمس لنفسه:

"لكن كم من المتعب ومن المؤلم أن تستمر مثل هذه الأفكار في التطفّل عليّ، لن تدعني مثل هذه الأفكار أشعر بالسكينة في حياتي..."

ثم حدّث نفسه من جديد:

"عليك أن تكبُت هذه الأفكار كلما أتت إليك بأضعاف القوة التي تقتحم بها ذهنك. ليس من صالح الناس أن يكونوا فقراء. كنت ذات يوم فقيرًا ومع ذلك ولم يكن قد خطر ببال أحدهم أن يساعدني وأن يُحسن إلي... كان علي أن أساعد نفسي بنفسي في هذه الحياة بقدر ما كان بإمكاني ذلك. أنا أكره الفقراء، كما أكره التعساء... في الحقيقة. ولتفنّد ذلك ! أنا أكره العالم بكامله وأكره كل شخص فيه..."

ثم أجابه الصوت الهادئ الرقيق للجانب الجيّد في نفسه:

"يا للعار، سيد كليفلاند يا للعار! ... لو تركت المجال لهذا الضوء القاتم للتسلل إليها وللسيطرة عليها فسوف تُفسد نفسك. أنت تعلم ذلك أكثر من أي شخص آخر، وأنت الآن تأثم بحق نفسك ... أنت ترغب بأن تكون سعيدًا. حسنًا، قد تكون كذلك. لديك الكثير من الفرص لتأدية ما عليك من واجبات. بحق الله، لم لا تبدأ بالتصرف

كشخص سويّ؟ ما تقوله حول قيامك بمساعدة نفسك صحيح تمامًا، وأنت تستحق التقدير لأجله. وعليك أن تتذكر بأن غالبية الفقراء هم حاليًا بحاجة إلى من الاستفادة مما لديك، لديك ثروتك ولديك هذه الشركة التي تعمل بشكل جيد.

كانت لديك، في مطلع حياتك، آلاف الفرص التي تُتيح لك مساعدة الآخرين وكان بإمكانك أن تصبح فعّالاً ومُبادرًا. كنت قد حصلت على التعليم المناسب وكان القَدر قد ساعدك على تطوير نفسك. كما أنني بالإضافة إلى ذلك، أريد أن أسألك من جديد ألن يسألك الله - عزّ وجلّ - عما كان يُعانيه إخوتك في البشرية من شقاء قبل أن يُسعفهم برحمته؟ عليك أن تُبعد عن هذه السياسة الأنانية غير الإنسانية! عليك أن تستجب لباعث الشهامة، وأن تتبع ما يُمليه عليك قلبك وإلا فلن يكون بإمكانك الحصول قطّ على السكينة، كل ما عليك هو أن تتبع تعاليم الله - عزّ وجلّ - الذي سوف يُنير لك طريق الهداية والصلاح ...

أغلق السيد كليفلاند النافذة وتجوّل عدة مرات عبر الغرفة ثم أطلق تنهيدة عميقة وحدّث نفسه من جديد:

"أعتقد أن كل ما أشرت إليه في غاية الصحّة. نعم! كنت أحمقًا بغيضًا. سوف أقلع عن ذلك وسوف أعيش حياتي بطريقة مختلفة وليكن الله في عوني!... لدي الثروة

وليس لدي أي أطفال ولا حتى صوص صغير أنفق عليه المال، كما ليس لدي من أترك لهم المال عندما أموت، لذا فسوف أنفق المال على أعمال الخير. ولكن، ليتني أجد فقط الطريقة الأفضل لذلك. هذا هو الإشكال. لكن لا بأس سوف أجد الطريقة لذلك"

ثم ضرب الجرس لاستدعاء توم.

ظهر توم على الفور وقال كعادته "ها أنا ذا سيدي".

قال السيد كليفلاند: "توم، عليك أن تُذكّرني صباح الغد بإرسال شحنة من الحطب للسيدة بيترز".

قال توم: "نعم سيدي، ومن الأفضل أن ترسل إليها أيضًا بعض اللحم المُقدد لأنني سمعت الصغيرة ماكس بيترز تقول لوالدتها بأنها لم تتذوق طعم اللحم المقدد منذ مدة طويلة.

قال السيد كليفلاند: "عليك أن تهتم بأمورك الخاصة فقط، لا أريدك أن تتدخل بما لا يُعنيك. متى كنت أطلب منك النصيحة؟ ثم همس لنفسه:

"في الواقع كنت أرغب بإرسال بعض اللحم المُقدد لتلك المرأة لكنني لو فعلت ذلك الآن، فسوف يعتقد هذا الرجل الصفيق بأنني فعلت ذلك بناء على نصيحته. لكنني،

على كافة الأحوال، لن أرسل إليها اللحم المقدد، بل سأرسل إليها بعض لحوم العجل والضأن".

وكان الباب قد طرق في هذه اللحظة بالذات، وعندما فتحه توم دخل السائس ديك بسرعة وهو يلهث.

سأله السيد كليفلاند: "أهذا أنت ديك؟ ما الذي تريده في مثل هذه الساعة من الليل؟"

أجاب ديك بأسلوبه الخاص بالنطق الكلام بجمل متقطعة:

"هناك رجل في الأسفل. هو ينتظر الدخول. هو يبدو مضطربًا جدًا. هو يقول بأن هناك مُخيم على بعد نصف ميل من هنا، وبأن الأشجار تسقط تحت وطأة العاصفة. الأمر سيء جدًا. هو يخشى أن يموت الجميع هناك. هو يسأل فيما إذا كان بإمكانك أن تتكرم بإيوائهم في منزلك إلى صباح الغد".

قال السيد كليفلاند: "مُخيم؟ وفي مثل هذه الليلة العاصفة؟ ليكن الله في عونهم، ما هو عددهم ديك؟"

أجاب ديك: "هو وزوجته وستة أطفال صغار السن سيدي".

سأل السيد كليفلاند: "هم ليسوا من الزنوج أليس كذلك؟"

أجاب ديك "لا سيدي، ليسوا من الزنوج، كما لا يبدو عليهم أنهم من الفقراء، لكنني أرى بأن الأفضل أن تمنحهم المأوى هذه الليلة وإلا فقد يموتون جميعًا تحت الأشجار التي تتساقط".

كان توم يعلم جيدًا بأن سيده يكره تلقّي النصيحة من الآخرين، وبذلك خشي من أن يكون ديك، بما اقترحه عليه، قد تسبب في عدم تلبية طلب ذلك الرجل البائس، لذا تدخّل في الحديث قائلاً:

"سيدي، لو كنت مكانك لما منحتهم المأوى على الإطلاق".

هتف السيد كليفلاند: "ما الذي تعنيه؟ لا بد أنك فقدت عقلك. ديك، عليك أن تُحطم رأس هذا الفتى. لن يكون بإمكاني تحمّل مثل هذه الوقاحة أكثر من ذلك".

ثم التفت إلى توم وقال:

"لا تقف أمامي وأنت تبتسم بهذه البلاهة".

قال توم وهو يتوارى وراء ديك الذي كان والده "لن أفعل ذلك سيدي"

ثم قال السيد كليفلاند بعد ذلك: "دَع الرجل يأتي إلى هنا".

عندما مَثُل الرجل أمام السيد كليفلاند صُعق بمظهره الشاحب المُنهك وقال له على الفور "اجلس أيها الرجل".

أجابه الغريب "أشكرك سيدي لكن علي العودة إلى عائلتي بأسرع ما يمكن. هل بإمكانك أن تمنحنا الإقامة في منزلك لهذه الليلة فقط؟"

أجاب السيد كليفلاند: "بالتأكيد، هل لديك وسيلة نقل لاصطحاب عائلتك إلى هنا؟ قيل لي بأن لديك ستة أطفال صغار السن"

أجاب الغريب: "سوف يكون عليهم السير على الأقدام سيدي، لأن الحصان الوحيد الذي كان لدينا قُتل على إثر سقوط إحدى الأشجار الكبيرة عليه. لكنني لست أعترض على ذلك، فقد يكون ما حدث له قد حدث لزوجتي أو لأحد أطفالي، لكن بأنني فقير الحال فلن أتمكن من تأمين حصان آخر لهم".

وبما أن مشاعر السيد كليفلاند في ذلك الوقت في حالة من التأجّج، فقد نهض واستدار بسرعة نحو المكتبة لكي يُخفي شدّة تأثره بما سمعه ولكي يمسح الدموع التي سقطت على خديه ويُتمتم لنفسه كما كان من عادته:

"الحقيقة أن هذا الأمر مؤثر للغاية" ثم استدار نحو الغريب الذي كان على وشك مغادرة الغرفة وقال:

"لو انتظرت لبضع دقائق فسوف أنقل زوجتك وأطفالك في عربتي فليس من المعقول أن يقطعوا هذه المسافة على أقدامهم وفي مثل هذه الليلة العاصفة".

قال الغريب بصوت مُرتجف:

"ليباركك الله سيدي. لكنني أشعر بالقلق في البقاء هنا ولو للحظة أطول"

قال السيد كليفلاند: "حسنًا، اذهب إليهم وسوف تلحق بك العربة وسوف أكون أنا من يقودها".

ثم غادر الغريب دون أن يقول شيئًا. وفي ذلك الوقت كان ديك وتوم يتبادلان نظرات الاستغراب من هذه النوبة غير المألوفة والمفاجئة من الشعور الإنساني لدى سيدهما. وكان توم قد شعر أيضًا بأن أولئك البؤساء قد حصلوا على هذه الفرصة بفضل حكمته ونتيجة تدخله فقط وبدون أي شكّ .

كانت العربة قد أصبحت جاهزة بعد وقت قصير، وبذلك انطلق بها السيد كليفلاند نحو مكان تواجدهم.

ولدى وصوله وجد تلك العائلة مُجتمعة حول الحصان الميت. كان الجميع يندبون بينما كان الوالد الذي وصل لتوه يتحدث إليهم بإسهاب عن حسن الاستقبال الذي لَقيه من السيد كليفلاند.

استغرق منهم صعود إلى العربة بعض الوقت، وكان على السيد كليفلاند أن يحمل اثنين من الأطفال المكتنزين على ركبتيه... نعم، ها هو يقود العربة في تلك العاصفة الهوجاء مواجهًا خطر الأشجار التي كانت تسقط من حوله، وإلى جانبه طفل تحمله والدته بين ذراعيها وهو يصرخ بأعلى صوته لشدة الخوف، وعلى كل ركبة من ركبتيه طفل مكتنز، وهو يكاد يُعتصر بين الأشخاص التسعة الذين كان يُقلّهم. لكنه مع ذلك كان يشعر بالكثير من السعادة!... حتى أنه كان أكثر سعادة مما كان عليه منذ وقت طويل!.. في الواقع، لا بدّ أن يكون للعمل الصالح ولمساعدة الآخرين جزاءهما وثوابهما.

ولم يكن السيد كليفلاند لدى وصولهم إلى المنزل قد أسكن تلك العائلة في أحد الأجنحة الخارجية من المنزل، كما طلب منه ذلك الرجل البائس، وإنما قام بتأمين إقامتهم في غرفة مريحة تحت سقف منزله.

وعندما وضع السيد كليفلاند رأسه على الوسادة في تلك الليلة، كان قد استغرب مقدار ما يشعر به من سعادة غامرة، وبذلك أخذ يناجي نفسه:

"إن كنت سأشعر دومًا بما أشعر به الآن من سعادة، فسوف أستمر في الطريق التي سلكتها هذه الليلة... أصبحت الآن رجلاً جديدًا ولن أعود من جديد للتفكير بالانتحار"

كان السيد كليفلاند في تلك الليلة قد نام بكل راحة وسكينة، كما أنه عندما نهض في صباح اليوم التالي كان يتمتع بروح مُبتهجة مرحة وقد امتلأ قلبه بنور السعادة والسلام.

وبذلك كان أول ما أولى له اهتمامه هو أن روى لتلك العائلة قصة كل ما مرّ به أثناء حياته من نوائب ومحن. كانت تلك قصة طويلة محزنة، وبذلك كان على السيد كليفلاند أن يتظاهر أكثر من مرة بأن عليه الردّ على مكالمة هاتفية في الغرفة الأخرى لكي يُخفي عنهم ما كان فيه من شدّة الانفعال. لكن تلك القصة لم تكن قد رويت لتلك العائلة عبثًا فهم حتى اليوم يوردون ذكر السيد كليفلاند وفي عيونهم دموع الشعور بالامتنان والتعبير عن المحبة والاحترام، كما أنهم، كلما طلبوا لأنفسهم الرحمة من الله - عزّ وجلّ - لاينسون مُطلقًا الدعاء لذلك المُحسن الكبير السيد كليفلاند مما جعل اسمه يشتهر في كل مكان قريب وبعيد، ومما جعل الجميع يكنون له المحبة والاحترام.

أيها القراء! إن كنتم تشعرون بالحزن وبالعزلة؟ فقد تحمل لكم هذه القصّة العلاج لنفوسكم ولكل ما قد تواجهونه من نوائب. تأمّلوا فيحياة من عانوا أكثر مما عانى منه أي منكم، وكل ما عليكم كلما اشتدت معاناتكم من الأحزان، هو أن تتذكروا ما قدمه لكم الآخرون من أعمال حسنة ... كل ما عليكم أن تسيروا على خطى هذا الشخص الذي اكتشف سرّ السعادة الحقيقة...

***

اغفر وانس

Forgive and forget

اصفح وانسَ !... لِم على العالم أن يصبح موحشًا ومتوحدًا؟

لِم علينا أن نُشوّه هذه الجنة الواسعة التي نعيش فيها؟

فلو كانت الزهور لن تتذكر سوى النسمات الباردة التي تهب عليها، ولو كانت نباتات الحقول الخضراء ستتوقف عن النمو خشية هبوب العاصفة! لما استمرت الحياة في هذا الكون...

"هيبرت، عليك أن تصفح وتنس".

لا، لن أصفح ولن أنس، كان الأمر قد تم عن قصد، لا يمكن أن أتغاضى مّطلقًا عن مثل تلك الإهانة الصريحة".

"لو تقبلنا أن الأمر قد تم عن قصد، وإن كنت أشك في ذلك، لكن عليك ألا تنس بأنه صديق قديم لك، وقد سبق لك معرفته جيّدًا منذ مدة طويلة وكنت دومًا تحترمه. لست أعتقد بأنه لم يكن قد قصد بما قاله أن يتسبب في إهانتك، لا بدّ أن ما فعله كان على سبيل المزاح والدعابة".

"لا! بل كان تصرفه بالتأكيد انطلاقًا من شعور نابع من داخله"

"حسنًا، قد يحدث أن يتصرف أي منا بهذا الشكل، وأنا أؤيدك بأنه لا يمكن لشيء خارجي أن يُحرك إرادتنا ما لم يكن هنا كما يدفع إليه من داخل نفوسنا"

"جيّد جدًا، وهكذا ترى بأن تصرف مارتسون يُشير إلى أنه لا يشعر تجاهي في داخله لا بالتقدير ولا بالاحترام، وهذا ما أثبت لي بأنه لا يمتلك صفات الشخص الذي يجعله أهلاً لأن يكون صديقي. كنت مخدوعًا به، وقد ظهر الآن على حقيقته، شخص وضيع!..."

"لا يا صديقي، أرجوك، لا يجوز سخيفًا. مثل هذه العبارات بشأن السيد مارتسون".

"ليست لديه أية مبادئ. كان يرغب بالإساءة إلي وأن يجعلني أبدو سخيفًا. رجل يتصرف كما فعل لا يمكن أن تكون لديه ولا حتى ذرة واحدة من الشعور بالاحترام... هل يمكن أن تنبعث مياه ملوثة من ينبوع صافٍ؟ ألا تُعرف الشجرة بما تطرحه من ثمار؟... عندما يبحث أي رجل عن إهانتي وعن إيذائي عن قصد، بإمكاني أن أدرك بأنه يرغب بألا تكون لي أية علاقة به بعد الآن".

قال الشخص الذي كان يتحدث معه:

"ربما! ربما! لكن ما تسبب به مارتسون بتصرفه كان في الحقيقة أنه قد تسبب بجرح اعتزازك بنفسك أكثر من أن يكون قد جرح كرامتك، وهذا ما يجعلك تتحدث عنه بمثل هذه الطريقة".

اعترض إرنست "سيد ويلفورد!..."

"هيا يا صديقي، لا حاجة لأن تغضب مني الآن فأنا في سن يُضاعف سنك، وقد عشت ما يكفي من السنوات لكي يكون بإمكاني أن أتفهم باتزان وتروٍ نوايا البشر، وأن أدرك الدوافع الداخلية التي تَكمن وراء جميع التصرفات الإنسانية ... الأفضل من بينهم وفي أحسن الأحوال، ليس لديه سوى القليل مما قد يفخر به، وإنما، وعلى العكس

قد يكون لديه الكثير مما يؤسف عليه بما يتعلق بالدوافع النبيلة... من الأسهل بكثير لأي شخص أن يتصرف بشكل سيء من أن يتصرف بشكل سليم، ومن الأسهل بكثير على المرء أن يترك لنفسه العِنان للاستسلام لرغباته الشريرة من أن يكبح جماح نفسه وأن يلتزم بالعدالة وبالمحاكمة العقلانية السليمة في تعامله مع الآخرين... فلتحاول أن تختبر نفسك بهذه القاعدة الإنسانية، ولتسأل نفسك هل ستكون مشاعرك وردّة فِعلك بهذا الشكل لو كان السيد مارتسون قد تصرف بالطريقة التي تصرف بها معك مع شخص آخر؟ لا... لا تُجبني بنعم لمجرد اندفاع سريع. عليك أن تفكّر بهدوء بهذا الأمر. لو كانت إجابتك بلا، فهذا يعني بأن الأمر ليس بسبب رغبتك في الحفاظ على المبدأ وإنما لأن ما حدث يتعلق بك شخصيًا، مما جعل الموضوع يبدو لك بمثابة الإهانة لكرامتك ومما جعلك تتصرف بمثل هذه المرارة والسوء.

لم يستسغ الشاب تلك الطريقة البسيطة في تفسير الأمور، لأنها كانت تمسّ ذات الشيء الذي كان السيد مارتسون قد أهانه به وهي كرامته... لذا أجابه ببرود:

"بالنسبة لهذا الأمر، فأنا راضٍ جدًا بما لدي من الأسباب التي جعلتني أستاء من مارتسون، وأنا على استعداد تام لأن أتحمل مسئولية ردّة فعلي الحالية تجاه هذه القضية.

لو كنت سأتعامل من جديد فسوف أكون بذلك قد ناقضت وإلى حدّ كبير ما أشعر به حاليًا تجاهه".

قال السيد ويلفورد: "في هذه الحالة، كل ما بإمكاني أن أقوله، ليمنحك الله ذهنًا أكثر حكمة. نعم، هذا هو أفضل ما بإمكاني أن أتمناه لك".

كان الشابان اللذان حصل بينهما الخلاف الحالي من الأصدقاء المُقربين ولعدة سنوات، وعندما دخلا عالم الأعمال، كانت طباع كل منهما تظهر بوضوح من خلال تعاملهما مما وبتعاملهما مع الآخرين. وبذلك كانت تكشف لكل منهما عن سِمات وطباع لم يكن قد عرفها سابقًا في الآخر، كما أنها لم تكن دومًا مما قد يستسيغه الآخرون. كانت لإدوارد مارتسون عيوبه وكانت لإيبر إرنست عيوبه أيضًا، وكان للأخير عيوبه بقدر ما كان للأول عيوبه. كان كل منهما يُدرك ذلك بوضوح، لذا كان هناك على الدوام رصد متبادل بينهما لتلك العيوب، ولكن كان هناك بذات الوقت، لين وتسامح متبادل في تعامل من كل منهما مع الآخر ولمدة لا بأس بها، على الرغم من أن كل منهما كان يرى بأن من الضروري أن يقوم الآخر بتقويم الكثير مما لديهمن عيوب.

كان من عيوب السيد مارتسون سرعة الغضب وبالتالي الاستعداد للتفوه بأشياء بغيضة وجارحة دون تفكير. لكن كانت لديه أيضًا فضيلة الاستعداد للتسامح وكذلك

الكثير من الطباع الجيّدة ومن الصفات الحميدة الأخرى. كان إرنست أيضًا سريع الغضب، لكن العيب الأكبر في طباعه كان الإفراط في تقديره لنفسه، وهو الأمر الذي جعله شديد الحساسية تجاه أي تصرف من الآخرين من شأنه أن يمسّ اعتزازه بنفسه. لذا لم يكن بإمكانه احتمال أي تصرف يتم بدون كِلفة حتى من أقرب الأصدقاء. كان يشعر بأن في ذلك ما يتسبب له بالإذلال، إن لم يكن أيضًا قد يحطّ من قيمته، وبذلك كان هناك العديد من الأشخاص الذين ينفرون من التعامل معه، فلا بدّ أن يتصرف أحد الأشخاص من حين لآخربطريقة، أو أنه قد يقول شيئًا من شأنه أن يجرح كرامته بأقل أو بأكثر من القسوة.

لم يكن في طباع مارتسون على الإطلاق ما يُشبه صديقه في تلك الأمور. كان نادرًا ما يفكر باعتزازه بنفسه كما أنه لم يكن يترك المجال لآراء الآخرين للتأثير عليه. لكنه بذات الوقت كان يحرص دومًا على ألا يتصرف بما قد يؤدي إلى التعدّي على كرامته.

كانت القطيعة بين الشابين قد حدثت هكذا:

كان الصديقان برفقة بعض الأشخاص الآخرين وكانت برفقتهم أيضًا سيدة شابة أثارت اهتمام إرنست وبذلك رغب إرنست بالظهور أمامها بأفضل صورة ممكنة، وبدأ



يروي لهم إحدى المغامرات التي كان فيها البطل، لكنه وهو يفعل ذلك، كان قد بالغ جدًا في وصف الدور الذي أداه، مما جعل مارتسون، الذي كان على علم بجميع الظروف التي رافقت ذلك، يشعر بميل إلى بعض الدعابة، ويبدأ باستدراجه ببعض الملاحظات التي جعلت الموضوع بكامله يبدو مُثيرًا للضحك، وهذا ما أثار ضحك الموجودين أيضًا.

كانت كرامة الشاب قد جُرحت إلى حدّ كبير، ذلك لأن الشابة التي كان يوجه إليها حديثه بالذات بهدف إثارة انتباهها، كانت قد ضحكت بكل جوارحها، وأدلت بملاحظتين أو ثلاث كانتا بالأحرى قد أحرجتا إرنست جدًا.

تأثر إرنست جدًّا رغم أنه في ذلك الوقت كان قد عَمِل على إخفاء مشاعره تمامًا.

كان مارتسون قد لاحظ أيضًا بأن الملاحظات التي صدرت عنه دون تفكير، والتي أثارت ضحك الموجودين، كان لها تأثيرها بأكثر بكثير مما قصده ومما كان يرغبه به، سواء أكان ذلك بالنسبة للموجودين، أو بما أثرت به على نفس صديقه الشديد الحساسية. وبذلك كان قد شعر بالندم لأنه تفوه بها وانتظر إلى أن يكون عليه مغادرة المكان مع إرنست لكي يُعرب له عن أسفه لسوء تصرفه. لكن صديقه لم يترك له الفرصة لذلك وإنما عَمل على الانسحاب بمفرده لكي يُشعره بأنه جرح كرامته بشكل خطير وجدّي.

وكان السيد مارتسون قد ذهب أيضًا إلى منزل صديقه في وقت مبكر من صباح اليوم التالي لكي يعتذر إليه لما تسبب له به من إزعاج، لكن صديقه لم يكن في المنزل.

وبذلك ذهب إلى مكتبه لكنه على الفور من وصوله إلى المكتب وجد بانتظاره حاشية صغيرة من إرنست تتضمن أسوأ العبارات والإهانات. كان الأسلوب الذي كتبت به قد جعل مارتسون يُقلع نهائيًّا عن نيته بالاعتذار، ويرمى بتلك الحاشية الصغيرة جانبًا ويقول:

"انتهى كل شيء ما بيننا. أصبحنا من الآن فصاعداً غرباء عن بعضنا تمامًا".

ثم تصادفا بعد ساعة في الشارع لكن كل منهما نظر إلى الآخر ببرود ومرّ إلى جانبه دون أن يُلقي عليه التحية ولو حتى بإيماءة من رأسه. وهذا ما كان من شأنه أن يُعزّز ما بينهما من نفور.

كان السيد ويلفورد العجوز على علاقة مع الشابين، وكان يشعر تجاههما بالكثير من التقدير لما لديهما من الكثير من الخصال الحميدة، لذا كان قد أسف للغاية عندما علم بما حدث بينهما وحاول السعي لمعالجة ذلك الشرخ الذي كان بينهما ولكن دون جدوى...

كانت كرامة إرنست قد جرحت على نحو موجع، ولم يكن على استعداد للصفح عما اعتبره إساءة مقصودة لا يمكن أن تُغتفر.

وكان مارتسون أيضًا قد شعر بالكثير من الإهانة من الحاشية التي تلقّاها من صديقه، وبذلك كان قد تمسك أيضًا بقراره بألا يّعرض كرامته للإهانة بأن يتصل من جديد بمثل ذلك الرجل الذي كان مع أقل إثارة، قد كتب مثل تلك العبارات الجارحة في تلك الرسالة المُشينة.

وبذلك كان الموضوع كالتالي:

كان أحد طرفي الخلاف قد شعر بأنه تعرّض لإهانة كرامته واعتزازه بنفسه، وكان الطرف الآخر قد شعر أيضًا بأنه تعرّض للإهانة ولعدم الاحترام، وهذا ما أدى ليس فقط إلى الإبقاء على القطيعة بينهما، وإنما إلى تعميق تلك القطيعة وإلى اتساعها يومًا بعد يوم..

حاول السيد ويلفورد استخدام أقصى ما لديه من تأثير على صديقيه الشابين لقمع ثورة الغضب التي أدت إلى تلك القطيعة بينهما، لكن ذلك كان عبثًا، لأن صوت الغرور والكبرياء كان أقوى من صوت العقل.

ومرّت الأشهر وحتى السنوات وهما لا يزالان كالغرباء عن بعضهما.

كانت الظروف تُجبرهما باستمرار على الاجتماع في الكثير من المناسبات الرسمية، كما كانا يلتقيان في أماكن العمل ويختلطان بذات الأوساط الاجتماعية، ذلك لأن أصدقاء أحدهما كان أيضًا من أصدقاء الآخر، ومع ذلك، فنادرًا ما كان أحدهما ينظر إلى وجه الآخر أو يتوجه إليه بالحديث أو يُلقي عليه التحية...

ولكن هل كان ذلك ما جعلهما أكثر سعادة؟ ... لا! وعلى الإطلاق! لأن الله تعالى قال في كتبه المقدسة:

"لن يفغر الله لمن لا يصفحون عن تجاوزات الآخرين"

وهل كان كل منهما يشعر بالفعل بأنه لم يعد يكترث على الإطلاق بالآخر؟... لا! ولا ذلك على الإطلاق أيضًا.

كان إرنست يسترجع دومًا ويُضخم ما تعرض إليه من إهانة، لكنه كان يفكر أيضًا بأن تعبيره عن استيائه كان من شأنه أن يتسبب لصديقه مارتسون بإساءة كبيرة، قد تُعادل ما لَقيه منه من إهانة. أما مارتسون فكان مع مرور الوقت قد بدأ يعتبر أكثر فأكثر، بأن العبارات التي صدرت عنه حينذاك على سبيل الدعابة، تعتبر أقل استفزازًا

بكثير من تلك الحاشية الصغيرة القاسية التي تلقاها من إرنست، والتي كان لا يزال يحتفظ بها ويُعيد قراءتها من وقت لآخر.

كان كل من الصديقين السابقين مُجبرًا على الاهتمام وعلى التفكير بالآخر لأنهما كانا يحققان نجاحهما في عالم الأعمال بالتوازي، وكانا يزدادان بذلك تقديرًا واحترامًا في المجتمع. وكثيرًا ما كان يُشار إلى اسم أحدهما أمام الآخر بكل استحسان وتقدير، وقد يحدث أيضًا في بعض الأحيان أن يتم جمعهما معًا بطريقة كانت تجعل موقف كل منهما تجاه الآخر في غاية الإحراج.

فعلى سبيل المثال كان أحدهما قد استدعي ذات مرّة لترأس إحدى الجلسات الرسمية، وكان الآخر قد كلف بأمانة سر ذات الجلسة، ولم يكن بإمكان أحدهما أن يعتذر... كان المطلوب أن تدور بينهما مُناظرة حول موضوع الاجتماع، وكان الأمر قد تم ولكن بكل برود وبأسلوب رسمي إلى آخر الحدود. لم يكن أحدهما عندما كان عليه أن ينظر إلى عيني الآخر قد شاهد في عينيه أي وميض لتلك الصداقة القديمة التي كانت بينهما.

كما كان السيد ويلفورد مُشاركًا في تلك الجلسة لذا أسف جدًا عندما لاحظ بأن تبادل الحديث بين إرنست ومارتسون كان يتم بشكل رسمي إلى أبعد الحدود، وبأن

أي منهما لم يكن قد من عدّل سلوكه تجاه الآخر ولو بأقل تقدير. كما كان قد أسفل ذلك لأنه كان يكنّ لهما الكثير من المحبة والتقدير، ويعلم مقدار الخير الذي يَكمن في نفس كل منهما. وبذلك حدّث نفسه وهو في طريق عودته إلى المنزل:

"لا يجوز أن يستمر الأمر بهذا الشكل. هما بذلك يتسببان بالتعاسة لنفسيهما ويحرمان المجتمع من تضافر جهودهما لأجل الصالح العام... وكل ذلك لماذا؟ لأجل سبب تافه. سوف أبذل جهدي من جديد لإعادة الوئام بينهما، وقد يكون النجاح حليفي هذه المرّة؟"

وبذلك كان قد توجّه في اليوم التالي لزيارة إرنست الذي أبدى الكثير من السرور بلقائه، وكان بعد أن تبادل الحديث معه قد تطرّق إلى موضوع جلسة الليلة الماضية بأن قال:

"كانت المناظرة مع أمين السر قد تمت بأسلوب رسمي للغاية، في الواقع كانت بالكاد تتصف بالدماثة".

أجابه إرنست:

"أنت تعلم جيدًا بأنني لا أحب مارتسون".

"ولكن يا صديقي، هذا الشعور هو شعورك أنت فقط، لأن كل من يعرفه يقدّره جدًا"

"هذا لأنهم لا يعرفونه كما أعرفه أنا".

"ربما كان الآخرون يعرفونه أكثر مما تعرفه أنت، وهنا يَكمن الفارق".

"عندما أتلقّى ضربة مؤلمة من أحدهم، فأنا فقط من يعرف مقدار قوة ضربته تلك وبأكثر بكثير مما قد يشعر به الآخرون".

"ألا تزال تُعزّز شعورك بالغضب وترعى وتُعزّز أفكارك القاسية، عليك أن تصفح وأن تسامح يا صديقي. اصفح وسامح، لا تدع شمس اليوم تغرب وأنت لا تزال على حنقك".

قال إرنست "بإمكاني أن أسامح سيد ويلفورد، وأنا أسامحه لأن الله يعلم بأنني لا أريد أي سوء لأحد، لكن ليس بإمكاني أن أنسى، أنت بذلك تطلب مني الكثير".

أجابه العجوز: "أنت لا تنسى لأنك لا تريد أن تنسَ، عليك أن تصفح وأن تغفر وسوف تجد بأنك بذلك سوف تنسى، أنا متأكد بأنك بالنسيان سوف تكون أكثر سعادة مما تكون بالصفح فقط".

لكن إرنست هزّ رأسه وهو يقول:

"أفضّل أن تبقى الأمور على ما هي. فلن يكون علي بذلك على الأقل أن أتنازل إلى مستوى فتح موضوع الصلح المخزي المُذل من جديد... كنت عندما أساء إلي بذلك الاستهتار، قد كتبت إليه ملاحظة شديدة اللهجة عبرت بها عن مشاعري تجاه سلوكه، لست أذكر الآن ما كتبته، ولكن لم يكن لديه بالتأكيد ما يمنعه من المجيء إلي لكي يعتذر عن سلوكه الأخرق، لكنه لم يشأ أن يفعل ذلك. هذا هو الأمر. لكن ليس بإمكاني الآن أن أسترجع في ذهني ذلك التوبيخ الغاضب الذي وجهته إليه حينذاك، كان هذا كل ما فعلته".

قال السيد ويلفورد: "من يكتب رسالة وهو في حالة الغضب ثم ينسى بعد ذلك ما كتبته، لا بد أن يكون على يقين بأن ما قاله ليس تمامًا ما كان يرغب بقوله. أعتقد بأنه لو كان بإمكانك الآن أن تحصل على الرسالة التي كنت قد أرسلتها حينذاك، بل أنا على يقين، من أنك لن تَعجب بعد الآن من أن يكون السيد مارتسون قد شعر بالإهانة ..."

"هذا دون شكّ من المستحيل، لا بد أنه مارتسون قد أحرق تلك الرسالة فور استلامها".

وكان السيد ويلفورد قد حاول دون جدوى أن يُقنع إرنست بالموافقة على نسيان الماضي، لكنه أكدّ له بأنه لم يعد يرغب بتجديد العلاقة مع صديقه القديم".

وفي الوقت الذي كان ذلك الحوار يتم بين السيد ويلفورد والسيد إرنست، كان مارتسون جالسًا بمفرده يُفكر بحزن بالماضي، لكن مشاعره كانت قد أصبحت أكثر اعتدالاً. كانت رسالة إرنست أمامه، كان قد عثر عليها بين أوراقه بالصدفة وأعاد قراءتها من جديد. كان للمرة الأولى قد سمح لنفسه بالتفكير بذلك وبأن يُحدث نفسه بما يلي:

"لا بد أن ما قلته حينذاك كان قد أصابه في العمق، على الرغم من أنه كان على سبيل الدعابة ودون أن أكون قد قصدت به أن أتسبب في جرح مشاعره. ليس لهذا الأمر أن يستمر لهذه المدة الطويلة. ليس الأصدقاء بهذه الكِثرة لكي يكون علينا أن نتخلى دون أي اكتراث عن صداقة من كنا عرفناهم جيدًا ومن تأكدنا من إخلاصهم لنا، وأنا أعلم بأن إرنست يتمتع بالكثير من الخصال الحميدة".

لكن شعور الكبرياء كان قد تملّكه من جديد وبكثير من الإيحاء بما يُفترض أن يُدين به الشخص لنفسه من الاعتزاز بالنفس..

فكّر مارتسون "أنا أدين لنفسي بما يُدين به الآخرون لأنفسهم من كرامة ومن اعتزاز بالنفس. فهل كنت على وشك أن أضعف وأعتذر لصديقي؟ ألم أكن قد حاولت ذلك قبل إرساله مثل تلك الرسالة المُهينة إلي؟

لا، لم تكن تلك الرسالة مُهينة إلى هذا الحدّ لأن ما فعله لايمكن أن يُعفيني أنا أيضًا من مسؤوليتي تجاهه. آه... أنا أشعر ... كم قد يؤدي بنا الغضب إلى التهوّر!..."

وكان مارتسون بعد فترة من التأمل قد تناول قصاصة ورق وقلمًا وبدأ يكتب:

سيدي العزيز:

سوف أقوم الآن بما كان علي أن أقوم به منذ سنوات، وهو بأن أتقدم إليك باعتذاري الصادق عن الكلمات التي كنت قلتها على سبيل الدعابة ودون تفكير، والتي لم أكن قد قصدت بها على الإطلاق التسبب بجرح كرامتك، وأنا أشعر الآن بالكثير من الأسف لأنني كنت بذلك قد جرحتك. ولولا هذه الحاشية الصغيرة التي أرسلتها إلي حينذاك، والتي أرفقها لك مع هذه الرسالة، لكنت تقدمت باعتذاري إليك في أول فرصة كانت قد سنحت لي. لكن ما شعرت به حينذاك لدى قراءة فحواها الغريب، كان قد

حال دون قيامي بذلك... أعترف بأنني كنت قد أخطأت بأن تركت لمشاعري تحجب عني التفكير بحكمة وبهدوء.

رفقاً الحاشية التي أشرت إليها.

صديقك القديم مارتسون

ثم أغلق مارتسون الرسالة وأرسلها إليه بواسطة الساعي.

ثم حدث نفسه بعد ذلك:

"من الأفضل للمرء أن يتصرّف بشكل جيد ولو بتأخير من ألا يتصرف جيدًا على الإطلاق. سوف أشعر الآن بأنني بوضع أفضل، لأنني سأكون قد حققت احترامي لذاتي، كما أنني بحدسي أشعر بأنني قد تصرفت الآن على الأقل بطريقة صحيحة تجاه هذا الموضوع وبأكثر مما فعلت لمدة طويلة".

وكان مارتسون وقد شعر بالراحة النفسية قد انصرف بعد ذلك إلى دراسة بعض الأوراق الخاصّة بعمله واستغرق بسرعة في عمله، مما جعله ينسى ذلك الأمر الذي كان قد شغله مؤخرًا إلى حدّ كبير.

ثم فتح أحدهم الباب ... عندما استدار مارتسون لكي يرى الشخص الذي دخل إلى الغرفة، كان قد وثب على الفور على قدميه. كان ذلك الشخص إرنست...

كان وجه الأخير شاحبًا ومضطربًا، وكانت شفتاه ترتجفان. اقترب بسرعة إلى الأمام وهو يمدّ يده إلى مارتسون ولكن لم يكن ذلك لكي يُمسك بيد صديقه القديم، وإنما لكي يعرض عليه الرسالة التي أعيدت إليه. ثم قال بصوت أبح:

"مارتسون، هل كنت قد أرسلت ... هل أنا من ... هل أنا من كان قد أرسل إليك مثل هذه الرسالة؟"

كانت إجابة مارتسون الحازمة التي لم تكن تخلو بذات الوقت من اللطف:

"نعم كنت من فعل ذلك"

قال إرنست: "وها أنا ألغيها الآن!"

ثم قام بتمزيق الرسالة إربًا ورماها على الأرضوأضاف بصوت في غاية الجدية:

"هل يمكن أن تمحوأنت أيضاً محتوياتها من ذاكرتك؟!"

أجابه مارتسون بانفعال واضح وقد أمسك بقوة بيد إرنست:

"لم تعد في ذاكرتي يا صديقي، لقد أزلتها تمامًا".

ثم ضغط إرنست بالمقابل بقوة على يد مارتسون وكان قد ركّز عينيه أيضًا على عيني مارتسون إلى أن امتلأت عيناهما بالدموع بحيث لم يعد بإمكانهما رؤية تلك التقاطيع القديمة المعتادة لكل منهما ولا تلك النظرة من التسامح التي بدت فيهما في تلك اللحظة.

قال مارتسون بصوت يملأه الانفعال:

"دعنا نغفر ونصفح وننسى، لقد أساء كل من للآخر وكنا بذلك قد أسأنا لنفسينا لأننا تركنا الانفعالات الشريرة تتحكم بنا بدلاً من العواطف النبيلة".

أجابه إرنست:

"وأنا أقول من أعماق قلبي: "آمين، دعنا نصفح ونتسامح وننسى. ليتنا كنا من سنوات بمثل هذه الحكمة والتعقّل!.."

وهكذا كان الصديقان قد تصالحا.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو:

"ما الذي كَسِبه كل منهما من سخطه ومن نقمته على الآخر؟...هل كان إرنست، بما فعله، قد أرضى غروره وكبرياءه؟ ... هل حصل مارتسون على المزيد من احترام

الذات؟ ... أعتقد أن هذا لم يحدث مع الأسف! ... كم قد تكون الأنانية عمياء! وكم بإمكانها أن تحشد الذهن بالنوازع الشريرة وبالأفكار المُضلّلة! كم بإمكانها أن تحجب الجانب الجيد لدى الشخص الآخر وأن تؤدي إلى المبالغة بما قد يؤخذ على الآخر وأن تحوّله إلى جريمة! لذا دعونا نتوخى الحذر منها.

وعندما شاهد ويلفوردذلك وعلم بما تم بينهما قال لإيرنست:

"ها قد تم الصلح بينكما أخيرًا"

وأجاب الأخير: "أصبح بإمكاني الآن أن أنس كما بإمكاني أن أصفح وأسامح"

وقال ذلك العجوز الحكيم السيد ويلفورد:

"عليك بالأحرى أن تقول بأن بإمكانك الآن أن تنس لأنك صفحت، ولو أنك صفحت وسامحت بالفعل فسوف تتوقف عن التفكير بما كان من تصرف خاطئ من صديقك... يتحدث الناس عن الصفح وعن عدم النسيان، ولكن أليس الأمر هكذا، عندما لا ينسى المرء الإهانة فذلك لأنه لم يكن قد صفح بالفعل".

قال إرنست: "أعتقد بأنك على صواب فأنا الآن أفكر فقط بما لدى صديقي من خصال حميدة، كما كنت فكرت سابقًا بما به من عيوب، وقد نسيت الآن الشرُ بتفكيري بالخير".

أجاب السيد ويلفورد:

"هذا لأنك سامحته! ولأنك قبل أن تسامحه،لم تكن فكرة الشر لديك تتيح لك المجال للتفكير بالخير".

"كان السيد ويلفورد على حق. فنحن عندما نصفح لن نجد أية صعوبة في النسيان.."

***

المُهملة

The neglected one

"لم أكن يومًا الابنة المفضّلة..."

"لم تنظر إلي والدتي يومًا بابتسامة تحمل ولو القليل من الحنان كما تفعل دوماً مع ابنتها الأكبر سنًّا والأكثر جمالاً مني..."

صاحت آن لامبير بنفاذ صبر وهي ترمي بقفاز أبيض في حِجر شقيقتها:

"كريستين، فلتقدمي لمرة واحدة في حياتك هذه الخدمة. فلثبّتي هذا الزر على قفازي ألن تفعلي ذلك؟ أنا في غاية الانشغال! ... يبدو أنني لن أصبح جاهزة للذهاب ذلك الحفل الموسيقي قبل ساعتين أو ثلاث. السيد دارسيت بالانتظار في الردهة منذ مدة طويلة. لستأعلم سبب ذلك، فكلما احتجت إلى شيء يكون عليّ أن أبحث عنه

دون أن أجده. هذا ما يحدث معي دومًا. ثم سألت وهي تنظر حول المكتب وتقلبه رأسًا على عقب بتوتر:

"كريستين هل أنهيت خياطة الزر؟"

كانت كريستين التي تُطلّ بفتور من النافذة وهي تتثاءب وتُحدّق بتكاسل في النجوم والقمر، قد أجابتها:

"لا أهمية لأن لا يكون على قفازك زر، فأنا لا أشعر الآن بالرغبة بتحريك أصابعي، عليك أن تخدمي نفسك بنفسك، هذا ما أفعله أنا دومًا".

أجابت آن بلهجة تنم عن المرارة والحنق:

"لم يكن علي أن أتوقع منك سوى هذا الموقف الأناني وهذا الكسل المعتاد، حتى عندما أكون بحاجة ماسّة إلى مساعدتك".

وكانت قد برمت شفتيها باحتقار وألقت إلى كريستين نظرة احتقار، تكشف عن تعاليها وعن طبيعتها الانفعالية، كما تُشير إلى أنها تعرف جيدًا بأن لديها نوع من التأثير ومن المقدرة على إخضاع الآخرين لرغباتها عندما تريد ذلك. ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة ازدراء وهي تتناول القفاز الذي سقط على الأرض.

انتزعت كريستين القفاز منها بشيء من الامتعاض وقالت:

"سوف أخيطه لك آن".

ثم التهب خداها بحمرة قانية وهي تلقي على وجه آن نظرة تنم عن العتاب والتأنيب، مما جعل نظرة الازدراء في عيني آن تتلاشى، لكنها مع ذلك أجابتها على الفور بلهجة قاسية:

"لا، كريستين، سوف أخدم نفسي بنفسي".

استدارت كريستين مُجددًا نحو النافذة وقالت:

"جيّد جدًا فلتفعلي ذلك".

لم تكن كريستين قد جَبُنت أمام نظرة شقيقتها، لكن ما كان في تلك النظرة من قسوة الازدراء كان قد أثر بها بعمق، وأفسد ما كانت فيه من هدوء التأمل من النافذة. ولم تتفوّه إحداهما بعد ذلك بأية كلمة، ثمغادرت آن المنزل...

أما كريستين فكانت بعد أن أغلق الباب الأمامي، قد أصغت للحظة إلى صوت شقيقتها الذي وصل إليها في الشارع، ثم نهضت من مقعدها ورمت نفسها على سريرها وأجهشت ببكاء مرير كاد يقطع نياط قلبها وهي تُمتم:

"آه... لماذا خلقني الله تعالى هكذا؟ لا أحد يُحبني... هم لا يعرفون شيئًا عني ولا يهتمون بي... هم يجدونني فتاة سيئة ولكن، آه! ليت بإمكانهم فقط أن يعلموا كم أبكي وكم أتألم وأنا أبحث عن الحنان الذي حرموني منه طوال حياتي...كم تلقى آن منهم جميعًا الحنان والمحبة والاهتمام، وكم تتم معاملتي بأسلوب مختلف ... لايوجد في هذا العالم الكبير من يهتم بي، فأنا دومًا في المرتبة الثانية بالنسبة إلى أبي وأمي ... هم يفخرون بجمال وبذكاء آن، ولا يهتمون حتى بالتفكير فيما إذا كنت أتمتع ببعض الذكاء...هم يعتقدون بأنني باردة المشاعر وعديمة الإحساس لكنهم هم من جعلوني أكتم مشاعري دومًا ومن جعلوني أنطوي على نفسي... هم من أجبروني على أن أكتم في قلبي ما أعانيه من أحزان ومرارة، ومن تَوق إلى الحنان ومن كبرياء وكرامة... هم من جعلوني أصبح أنانية مُتمردة عاصية سيئة الطباع لأن كرامتي تمنعني من أن أستجدي منهم المحبة التي لا يهتمون بمنحها لي ... ومع ذلك، لست أدري لِم أنا مُتكبرة وقاسية إلى هذا الحدّ؟ لم أكن هكذا عندما كنت في المدرسة، كنت حينذاك لطيفة ومرحة، وكنت أحظى بمحبتهم لي وأشعر بأنني أنا أيضًا الابنة المُفضلّة لديهم، الابنة اللطيفة الودودة، لكنني لم أعد تلك الفتاة الآن. كان أفضل ما في طبيعتي من خصال حميدة يظهر في تصرفاتي لأنني كنت أحظى بمحبتهم وأعيش بينهم في جو من المحبة والحنان.

والآن. آه... ما الذي حلّ بي؟ لم أكن أعلم بأن بإمكاني أن أتغيّر إلى هذا الحدّ، لم أكن أعلم بأنه لن يكون في قلبي سوى شعور طاغٍ من الحسد والغيرة. حتى أنني لم أعد أعرف نفسي...

ثم بكت كريستين إلى أن أصيبت بالصداع وبدأت تشعر بأن جبينها قد تورم ويكاد ينفجر. و مع ذلكوعملاً بالقول المأثور:

"لا بد أن يسود الهدوء بعد العاصفة"

كانت كريستين خلال نصف ساعة قد غرقت في نوم عميق لشدة ما أنهكتها ثورة مشاعرها، لكن وجهها، حتى وهي نائمة، كان شاحبًا مُثيرًا للشفقة...

عندما عادتان في ساعة متأخرة من الليل ألقت نظرة سريعة إلى السرير لكي ترى فيما إذا كانت شقيقتها نائمة. كانت في تلك الليلة قد شعرت أكثر من مرّة بتأنيب الضمير على الطريقة التي تصرفت بها تجاه شقيقتها. اتجهت بهدوء نحو السرير وانحنت نحو كريستين التي لم تكن دموعها قد جفّت بعد على خديها. كانت تلك الدموع على الخدين الشاحبين قد كشفت لآن فجأة عن حقيقة تلك الفتاة التي تبدو غير مُبالية والتي يعتبرها الجميع أنانية...

كم شعرت آن حينذاك بتأنيب الضمير على ما تبدو فيه شقيقتها من حزن عميق كان النوم قد خفّف من حدته بعض الشيء! ... كان الحزن والخنوع والضعف الذي يبدو عليها قد حرّك في قلب آن الكثير من المشاعر التي نادرًا ما كانت تشعر بها في السابق تجاه شقيقتها. أدركت بوضوح أكثر بأن ذلك التَحفّظ المُتعالي الذي يبدو على شقيقتها، وبأن انطوائها على نفسها، وبأن تحفظها تجاه الآخرين لم يكن سوى ستارة تُخفي خلفها مشاعرها الحقيقية.

قبّلت آن تلك الدمعة التي لم تكن قد جفت بعد على خدّ شقيقتها ثم ركعت إلى جانب سريرها وبدأت تُصلي، وهو الأمر الذي لم تكن فعلته أيضًا منذ سنوات. ثم غمرها فيض من مشاعر التعاطف ومن وخز الضمير جعل قلبها ينبض بالحنان وجعلها تجهش بالبكاء بصوت مرتفع...

استيقظت كريستين مذهولة وتمتمت ببضع كلمات قبل أن تكون قد استطاعت أن تدرك تمامًا معنى ما شاهدته.

وعندما رفعت شقيقتها رأسها أخيرًا قالت لها:

"ما الأمر آن؟ هل تبكين؟"

نهضت آن، ترددت قليلاً، كانت تشعر برغبة جامحة بأن ترمي نفسها بين ذراعي كريستين لكي تبكي وتطلب منها أن تغفر لها سوء تصرفها، وكانت متأكدة بأنها سوف تُسامحها بكل محبة. لكنها مع ذلك ظلّت صامتة للحظات، كان قلبها ينبض بالحنان، لكن شيئًا ما جعلها تتراجع عن قرارها. شيء كثيرًا ما كان يُثبط ما لديها من دوافع طيبة لا إرادية. كانت آن من النوع المتكبّر المغرور، لذا لم يكن بإمكانها أن تنطق بشقيقتها.التي تُعبّر عن الندم والتي تُظهر التواضع. لكنها لم تتمكن مع ذلك من التهرب من نظرة القلق التي كانت على وجه شقيقتها، وبذلك أسدلت عينيها وبدأت الدموع تسيل على خديها.

اقتربت كريستين منها وقالت بدهشة:

"ما هذا آن، آن ... آن عزيزتي...هذا التصرف لا يُشبهك!...لِم لا أشاركك في حزنك وأخففه عنك إن كان هناك ما يتسبب لك بالحزن؟... كيف بإمكانك أنت بالذات أن تشعري بالحزن؟ فأنت لم تتعرضي طوال حياتك للتجاهل أو لإهمال من حولك...

لكن كريستين توقفت عن الكلام بسرعة وتوهج وجهها بحمرة قانية. كانت دون أن تشعر قد كشفت عما كانت تُخفيه بكل حرص تحت قناع من عدم المُبالاة ومن

القسوة، من مشاعرها تجاه وضعها في عائلتها، وبأن شقيقتها هي الابنة المّفضلة لدى والديها...

كانت آن فخورة جدًا بجمالها وفتنتها، وكانت، بكل أنانية، ترغب بأن تستأثر دومًا بمفردها بإعجاب كل من حولها. كانت تعلم بأن شقيقتها تتمتع مثلها بالذكاء وبأنها ربما كانت أكثر ذكاءً منها. كانت كثيرًا ما سمعتها تتحدث وقد توهج خداها ولمعت عيناها بالحماس. شاهدت كيف كان وجهها، وإن كان ذلك في مناسبات نادرة، يُشرق بجمال حقيقي عندما ينعكس عليه جمال روحها، وأدركت بذلك كيف يمكن لجمالها أن يصل إلى القلب. كانت تعلم بأن بإمكان كريستين أن تكون فتاة لامعة وفاتنة، لو لم يتم قمعها، وبأنها رغم كل ما فيها من عيوب، تتمتع بأنثوية حتى بأكثر مما لديها هي من أنثوية. كان في صوتها ما يُثير المشاعر، كما أن هناك كياسة مُحببة في جميع تصرفاتها. كانت تلك هي المرة الأولى التي شعرت بها آن بأن كريستين إنسانة كاملة، إنسانة من حقها أن تُحب وأن تَلقى الحب والاهتمام ممن حولها.

شعرت آن في تلك اللحظة بأنها كانت دومًا، بتصرفاتها تجاهه كريستين، الإنسانة الأقل شهامة، لأنها كانت تستأثر دومًا بمفردها باهتمام أصدقائها، بدلاً من أن تُقدم إليهم كريستين المُتحفظة الرقيقة المشاعر...

لم تكن الشقيقتان تتواصلان معًا كما لم تكن إحداهما قد ائتمنت الأخرى على أسرارها. كانت آن الابنة الأكبر سنًّا وكانت الكل في الكل بالنسبة لوالديها، بينما كانت كريستين أشبه بالفتاة المُلحقة بها.

شعرت آن حينئذ بأن كريستين بتلك العبارة التي تفوّهت بها بشكل غير إرادي، قد نقلت إليها لومًا غير مقصود، وبأنها أظهرت أيضًا كيف بإمكانها أن تتراجع بسرعة وأن تنطوي على نفسها وتكبت مشاعرها.

كانت آن عندما أمعنت التفكير بتصرفاتها قد انتصرت على غرورها وأنانيتها وبذلك جعلتها مشاعرها الطيبة تقول لها بصوت خافت وهي تضمها إلى صدرها:

"كريستين الغالية. لم تكن إحدانا للأخرى قطّ كما يُفترض أن تكون الشقيقات لبعضهما. لم أكن قد راعيت شعورك، كنت مهملة وأنانية ولم أكن قد أدركت، كما كان علي أن أفعل، بأنك عندما عدّت من مدرستك، كنت غريبة عن غالبية صديقاتك ومعارفك. أنت من النوع الخجول جدًّا لذا فأنت حتى هنا في منزلك لا تضحكين وتتحدثين مع والدك ووالدتك كما أفعل".

قالت كريستين: "أتعلمين آن لِم أبدو لكم فاترة؟ أنا لست كذلك بطبيعتي، لكن والدي لا يُبديان أي اهتمام بما أقوله. وبما أنني لا أفتقر نهائيًّا إلى الكرامة فلم يكن بإمكاني أن أتقبّل أن يتم النظر بعد اكتراث إلى كل ما أفعله وإلى كل ما أقوله".

قالت آن بتوتر: "لِم كريستين؟ أنت بالفعل مرهفة الإحساس للغاية. كل ما عليك أن تكوني مثلي. عليك أن تتصرفي بحريّة وبحيوية لكي يتسلى والدنا معك، وأنتقولي لوالدتنا ما يسرها سماعه، وسوف تصبحين بذلك الطفلة المُدلّلة مثلي".

قالت كريستين: "لن أكسب شيئاً إن كنت سأحصل على المحبة التي تعتمد على قدرتي على الإرضاء فقط ... كنت قد شعرت بسعادة غامرة عندما عدت إلى المنزل بعد تلك الفترة الطويلة من الغياب، كنت مفعمة بالأمل، وبقلب يملأه الحب نحوكم جميعًا كما تكون كل فتاة تعود إلى أهلها بعد انتهاء دراستها. كنت حينذاك في السابعة عشر لكن يبدو لي الآن وكأن أعوام طويلة قد مرّت على اليوم الذي كنت قد وثبت فيه إلى ذراعيك بكل بهجة... على اليوم الذي قبلاني فيه أمي وأبي...

بيتنا، بيتنا الجميل! كم كان لتلك الكلمات وقعها الساحر علي نفسي! كم حلمت بأن أستكين إلى جانب أبي، يدي بيدك وبوالدتنا وهي تنظر إلينا وتبتسم بسعادة. إلا أنني عندما أدركت فيما بعد حقيقة أنني لست مُحببة إليكم، شعرت بقلبي ينفطر.

كان قلبي يفيض برغبة مُلحّة إلى الحنان في الوقت الذي لم أكن ألقاه من أي منكم. كم من مرّة نظرت إلى وجه أمي غير المُبالية وشعرت بأن الحب الذي يغمر قلبي تجاهها لا يعني لها شيئًا. كم كنت وأنا في غمرة هذه المرارة وخيبة الأمل، قد أدركت تمامًا تلك الحقيقة المُفعمة بالألم، بأن الحنان الذي أفتقده هو بالنسبة إلي الحياة ذاتها، وبأن قَدري ألا أنعم بدفء وبنور الحنان العائلي القدسي...

وبذلك كنت مع مرور الأشهر قد انغلقت على نفسي، وحلّ في قلبي فتور رزين وبرود كان يخترقه أحيانًا شيء هزيل تافه تُتيحه بوابات الإحساس. كنت أبكي بحزن شديد على ما ارتكبه من إثم بحق قلبي المحروم من أن تدخله أية بهجة قد تُلقي بعض الضوء على ما يعتلجه من أسى عميق.

آه! ... لكنني كنت أصبح مخلوقة مختلفة عندما أهدأ وألجأ على الصلاة وأشعر بأن الله تعالى يستمع إلى ابتهالاتي ... كان بإمكاني، لمجرد أن تضع والدتي يدها علي كتفي بحنان، أو أن تملأ عينيها الدموع، أن أضع رأسي على صدرها وأبكي ... وأبكي... لكنني لم أكن أحصل يومًا على ذلك الحب وبذلك كان قلبي يقسو من جديد".

قاطعتها آن وهي تضمها إلى صدرها بقوّة وتبكي بإحساس غامر:

"لا تقولي هذا كريستين. سامحيني حبيبتي، سامحيني شقيقتي الغالية! سوف يكون قلبي سَكنك، سوف نحب بعضنا البعض على الدوام. لن أكون بعد الآن كما كنت معك سابقًا. لا تبكي بهذا الشكل كريستين أليس بإمكانك أن تصدقيني؟ أنا أنانية، وقد أكون أحيانًا عديمة الإحساس لكنني الآن وفي هذه الليلة، أعاهدك بألا أكون قاسية تجاهك من جديد".

كان القليلون في تلك اللحظة من سيصدقون بأن هذه الفتاة الباكية التي رمت رأسها على كتف كريستين والتي كانت تطبق على يدها بإحكام هي الآنسة آن لامبير.

ولكن لو كان بإمكاننا أن نقرأ تاريخ العديد الأشخاص الذين يبدون من الناحية الخارجية عديمي الإحساس، فسوف نكون أكثر إنصافًا في أحكامنا على الآخرين. سوف يكون بإمكاننا أن نُدرك بأنه هناك بعض الأوقات التي تتملكهم فيها بعض الأحاسيس الأكثر سُموّاً بموجب قانون الوراثة. سوف نرى نورًا يتدفق إلى أعماق قلوبهم ويُحطم جذور الشر التي كانت تعيق ظهوره. سوف نرى بأن القلب القاسي قد ينفطر، ولو لوقت قصير، بتأثير المشاعر السامية. سوف نرى بأن جميع البشر متشابهون وبأنهم صنيعة قدرة الله - عزّ وجلّ - وسوف نبكي على أنفسنا كما يفعل الآخرون لكي نشعر كم كنا نادرًا ما نُصغي إلى الصوت الذي يوجهنا نحو التصرف القويم.

وبذلك كانت آن لامبيرت قد اعتقدت بأنها، بتأثير ذلك الحنان الصادق الذي غمر قلبها في تلك اللحظة، لن تعمد بعد الآن إلى التصرف بطريقة أنانية من شأنها الإساءة إلى كريستين، وشعرت بأنها كانت جائرة قاسية وأنانية وبأن مشاعر الندم التي تملكتها استطاعت أن تقهر جميع الشرور في نفسها... لكن الحقيقة كانت أن تلك النوازع السيئة كانت قد اهتزّت فقط...

جففت كريستين دموعها ونظرت إلى وجه آن بتساؤل كما لو أنها كانت تشكّ بأن فيه بعض الحزن المَخفي الذي لم تكن قد عهدته فيها. أجابت آن على نظرتها بالقول:

"كريستين، لا بد أنك عندما نهضت من نومكقد تساءلت عن سبب بكائي. في الواقع لم يكن هناك ما تسبب لي بالحزن لكنني عندما نظرت إليك عاد إلى ذهني كل ما كنت قد أسأت به التصرف تجاهك، وشعرت كم كنت أفتقر إلى الأخوة في تصرفاتي نحوك..."

قاطعتها كريستين بشهامة وكياسة وقالت:

"شقيقتي الغالية آن، لا تقولي هذا. دعينا ننسى الماضي. سوف يكون المستقبل مشرقًا. سوف تُفضي كل منا للأخرى بما في قلبها وسوف تعمل كل منا على منح العزم للأخرى بنوايا جديدة. لم أعد وحيدة لأنني شعرت الآن بحبك لي وأنا سعيدة جدًّا بذلك".

كانت أحلام الشقيقتين في تلك الليلة سعيدة هنيئة، ومرّ أسبوع كانت آن خلاله رقيقة ومحبة تجاه شقيقتها. لم تكن تخرج دون أن تصطحبها معها. كانتا لا تفترقان، كانتا تدرسان وتكتبان وتُحيكان معًا. وكان يبدو بأن آن قد تخلّت عن شخصيتها الاعتيادية وخضعت إلى مشاعرها النقية، وبذلك لم يحدث أي شيء من شأنه أن يُفسد صفو حياتهما.

وذات ليلة بينما كانت آن تقرأ لكريستين بصوت مرتفع دخلت إحدى الخادمات إلى الغرفة وقالت:

"آنسة آن، هناك شابان بانتظارك في الردهة، السيد دارسيت والسيد بورنز".

نهضت آن وقالت للخادمة وهي تُناول الكتاب لكريستين:

"حسنًا أنا قادمة:

"لكنها عادت وقالت لها على الفور:

"تعالي معي كريستين".

أجابتها شقيقتها "أووه، لا يهم ذلك، أنا لا أعرفهما لذا أفضل البقاء هنا لكي أقرأ، سوف تكون والدتي بصحبتك في الردهة".

قالت آن "كما تشائين، لكن لو شعرت بالملل من القراءة تعالي لكي تنضمي إلينا".

قالت كريستين: "سوف أفكّر بذلك".

عندما دخلت إلى الردهة كانت تبدو جميلة جدًا وقد أشرق وجهها بابتسامة ترحيب ساحرة. كان الحديث بعد أن دار حول بعض المواضيع التافهة، قد تطرّق إلى بعض المناقشات والمواضيع التي وجدت آن بأنها قد تُثير اهتمام شقيقتها كريستين. وبذلك كانت، انطلاقاً من نيتها الحسنة، قد تركت الغرفة وأسرعت إليها. وضعت يدها برفق عل كتفها وقالت:

"كريستين، تعالي معي إلى الردهة، السيد دارسيت يتحدث إلينا عن رحلاته في أوروبا وأنا متأكدة من أنك قد تهتمين بذلك. لا حاجة لأن تكوني غير اجتماعية. تعالي معي عزيزتي".

ألقت إليها كريستين نظرة وابتسمت ابتسامة عبّرت بها عن الكثير من الامتنان، ثم ذهبت برفقتها إلى الردهة وقد امتلأ قلبها بالسعادة بما لمسته من برهان جديد عن اهتمام ومحبة شقيقتها لها.

عندما قدّمت آن شقيقتها كريستين إلى ضيوفه، كان قد علا وجه كريستين تعبير لطيف عما في قلبها من بهجة.

ألقى السيد دارسيت على الفور نظرة إعجاب إلى كريستين ثم التفت إلى آن وقال:

"آنسة لامبير، لم أكن أعلم بأن لك شقيقة". وأجابت كريستين على الفور، لكي تنقذ شقيقتها من الحرج الذي بدا عليها بتلك الحمرة القانية التي علت وجهها:

"الحقيقة أنني أذعنت هذه المرّة لإقناع آن لي بأن أكون اجتماعية بعض الشيء. أعتقد بأنني سوف أجعل من هذا اليوم بداية لاختلاطي بالمجتمع".



أجاب دارسيت: "آمل ذلك. هل تعتقدين بأنك تجدين في انعزالك تأثيرًا مفيدًا على نفسك ومشاعرك؟" وكانت الإجابة المختصرة للفتاة الشابة:

"لا ليس الأمر هكذا"

لكن وجهها كان قد اصطبغ بالحمرة ولاح عليه تعبير ينمّ عن الأسى وقالت:

"لكنني أحيانًا ..." لكنها لم تُكمل تلك الجملة.

كان السيد دارسيت قد لاحظ التعبير الذي ارتسم على وجه كريستين مما أثار فجأة فضوله، وبذلك لم يكن قد تابع ما كان فيه من حديث عن رحلاته، وإنما استمر في النظر إلى ملامح وجهها بفضول، وربما أيضًا بأكثر مما تقتضيه قواعد اللباقة وحسن التصرف، كما كانت كريستين قد شعرت بتفحّصه لها وأحسّت بالغيظ لما بدا على وجهها من تعبير فضح ما بداخلها.

ثم تلا ذلك فترة قصير من الصمت قاطعها السيد لامبير بالقول وهو يبتسم:

"بودّنا أن نسمع الآن المزيد عن مغامراتك سيد دارسيت، هذا لو كنت ترغب بذلك".

أجاب السيد دارسيت:

"أووه! بالتأكيد" وكان قد تحدث عن ذلك لساعة كاملة. ثم طلب الحضور من آن بإلحاح أن تعزف وتغني، وكانت قد أدت ذلك بكياستها الاعتيادية التي يشوبها بعض التعالي.

ثم ترك السيد دارسيت البيانو واقترب من كريستين التي كانت تجلس بالقرب من النافذة وهي تستمع بكل اهتمام إلى غناء شقيقتها آن وقال:

"آنسة كريستين ألا تُغنين أنت أيضًا؟"

أجابت كريستين وهي تبتسم "أنا أغني أحيانًا، لكن آن تُغني أفضل مني بكثير".

قال السيد دارسيت: "دَعي الآخرين يُبدون حكمهم حول هذا الأمر. أليس هذا من العدل؟"

"نحن في كثير من الأحيان، نخطئ بالاعتقاد بأننا نؤدي الأشياء أفضل من غيرنا، لكنني أعتقد بأننا بشكل عام، قد نكتشف بالصدفة بأن هناك على الأقل بعض الأشياء التي لا نقوم بها بشكل جيد تمامًا كما يفعل الآخرون".

"بالتأكيد، لكن من المُتعارف عليه أن نتحدث عن أنفسنا، كما لو أننا أقل ممن نعتبرهم في الحقيقة أقل منا في الكثير من الأمور. لكن ليس هناك أي تواضع حقيقي في ذلك، فنحن بذلك نَحيد فقط عن الحقيقة".

"قد تؤدي قيود الأعراف والعادات إلى الكثير من الأكاذيب، فنحن إن قلنا دومًا الحقيقة، لن نكسب سوى الكثير من الأعداء. لكن قد يكون من الأفضل أن نكسب عداوة الآخرين من أن نُناقض الحقيقة. ما هو رأيك آنسة كريستين؟"

نظرت إليه كريستين باهتمام شديد.

ثم قال دارسيت بنبرة كانت أقرب إلى القسوة:

"يجب أن يكون الصدق والصدق فقط ما يسود ويحكم كل المواقف ولتكن النتائج ما قد تكون".

ثم أضاف بأكثر من اللطف:

"أنا أقدّر في المرء قبل كل شيء روح الصدق، لأن الإيمان بالله تعالى يتجلى هنا. وهذا ما يجب أن يُحرزه المرء، ومع ذلك فأنا أعتقد بأن على المرء أن يكون قبل كل شيء

صادقًا مع نفسه وأكثر بكثير أيضًا من صدقه مع الآخرين، فنحن نجفل من مجرد فكرة تدقيق النظر بدوافعنا الداخلية وتعقيداتها".

قالت كريستين باهتمام لأن ما مرّت به سابقاً كان لايزال يحذّ في نفسها قد تذكرت بأنها كانت قد سمحت لنفسها بالتصرف انطلاقاً من شعور خاطئ بحجة أن الآخرين لم يتصرفوا معها بشكل جيد:

"كما أننا عندما نضطر إلى مواجهة تلك الدوافع المَخفية، لابدّ أن نعمد إلى السعي لتبريرها وإلى إيجاد الأعذار لها. أنا متأكدة من أن الأمور هكذا".

ثم استأنفت حديثها بالقول:

"لكن ليس بإمكان المرء أن يعتقد بأن من الجيد أن يتم التعبير دومًا عن المشاعر التي قد تُثيرها بعض الظروف. فمثل هذا الأمر قد يمنعنا من التصرف بالكثير من المصداقية".

"قد يؤدي الأمر إلى ذلك بالتأكيد. ولكن يجب أن يتم أخذ النتيجة بعين الاعتبار. حسن الإدراك، القلب الصافي الطيب ورجاحة العقل هي الأمور التي يجب أن تُرشدنا إلى الطريق الأفضل في معظم الحالات".

هناك طاقة خفية صامتة وعميقة قد تصدر عن الأشخاص الطيبين يكون من شأنها أن تجعل قلوب من حولهم تتفتح وتنتعش بحضورهم، وقد يكون بالإمكان زرع القلوب التي لا تزال قليلة الخبرة ببذرة الانتصار على النفس، بمجرد دافع جديد، أو بطموح لحياة أفضل، أو بتطلّع إلى بلوغ الكمال.

كان هذا هو الأمر بالنسبة إلى كريستين. كان تأثير السيد دارسيت قد دعّم كل ما في نفسها من نزعة إلى الخير. وبذلك كان صفاء نفسها ورفعة مشاعرها قد أصبحا أكثر فأكثر جلاءً مع استطراد تلك المناقشة بينها وبين السيد دارسيت، وكان قد دعّم ما كان في ذهنها من آراء مبهمة عن الحياة لم تكن سابقاً قد عبّرت عنها. كما كان من الجليّ بأن تجربتها الشخصية جعلتها تُفكر بنضوج أكثر بكثير من سنها.

كانت كريستين قد اعتقدت بأنها كانت بمعاناتها قد أضاعت بهجة ومرح طفولتها، لكنها كانت مخطئة لأن تلك المعاناة كان من شأنها أن تجعلها تستفيد من دروس الحياة ... وبذلك كانت قد أحسّت بشعور غامر بالبهجة. شعور جديد لم تعهده مما جعلها تبدو أكثر رقة وهي تُدلي دون حرج بكل ما خطر ببالها من أفكار...حسناً، المستغرب أن تلقى ذلك التعاطف والحماس الذي كان السيد دارسيت يعبّر عنه بكل نظرة يلقيها على وجهها الذي ينم عن الذكاء. لم يكن بإمكانها بالكاد أن تصدّق بأنها هي

من تتحدث بهذه الطريقة، وبأن هناك شخص ما قد اهتم فعلاً بما تُبديه من آراء و أفكار، وخيل إليها بأن السيد دارسيت كان بذلك قد طوّق تمامًا ساعات وحدتها.

وفي تلك الليلة كان السيد دارسيت وهو يستأذن بالمغادرة، قد قال لها باهتمام وحميمية وهو يضغط عل يدها:

"آمل أن يكون لنا المزيد من الأحاديث عن المواضيع التي تطرقنا إليها هذه الليلة".

وأجابت كريستين بابتسامة صادقة مشرقة:

"وأنا أيضًا أتطلع جدًّا إلى ذلك".

كانت كريستين بعد مغادرة الزائرين قد عانقت شقيقتها وقالت ببهجة "عزيزتي آن، ألم تكن ليلة ممتعة؟"

لكن آن أجابتها وهي تحاول التظاهر بالنعاس:

"كانت ممتعة بعض الشيء، لكنني شعرت بالأحرى بأنني كنت بلهاء، وهذا ما أشعر به دومًا".

قالت كريستين: "أنت بلهاء!... أهذا ممكن؟ كنت طوال الوقت تتحدثين إلى السيد بيرنز، حسنًا، ربما لم يكن يبدو عليه الكثير من الحماس لما كان يدور حوله الحديث. هذا صحيح".

ابتسمت آن ابتسامة مُتكلفة، ثم حرّرت نفسها من كريستين بتوتر وانسحبت دون أن تقول شيئًا سوى كلمة "ليلة سعيدة".

كانت كريستين قد تبعتها بعد وقت قصير وهي تتساءل عن السبب الذي جعل آن تصبح صامتة إلى هذا الحدّ ومتوترة بهذا الشكل، وبذلك توجهت إليها على الفور من دخولها الغرفة وسألتها:

"آن، لِم أنت غاضبة مني؟"

وكانت إجابة آن بنفاذ صبر:

"لِم عليّ أن أكون غاضبة منك، أليس بإمكان المرء أن يختلي بنفسه دون أن يتم إقلاق راحته بتوجيه الأسئلة إليه حول السبب؟"

قالت كريستين: "بالطبع ... بالطبع، لن أقلق راحتك بعد الآن".

وكانت قد استفادت من توتر آن لكي تسترجع ما دار حوله الحديث في تلك الليلة وهي تشعر بالكثير من السعادة. ثم أدركت بأن سرّ الفظاظة التي كانت فيها آن وبأن ادعائها النعاس يَكمن وراء شعورها أثناء ذلك الحديث.

كانت آن قد شعرت بجرح في كبرياءها بأن تكون شقيقتها كريستين قد لفتت الأنظار إليها بحديثها أكثر مما كان لجمالها تأثيره على الموجودين.

لكن آن كانت بعد أن تمكنتمن السيطرة على توترها،قد بدأت تحدث نفسها:

"حسنًا، دارسيت على كافة الأحوال شخص مُتزمّت. بدأت الآن أفهم كريستين بشكل أفضل. أعتقد أنها متزمتة أيضًا. ربما كان دارسيت مهذبًا جدًّا ولطيفًا، وكان يسرني أن أجده دومًا على استعداد لدعوتي إلى الخروج كلما رغبت بذلك، لكنني لم أكن أشعر تمامًا بالراحة برفقته. كنت أخشى دومًا من أن أتفوه بشيء خطأ، شيء قد يؤذي مشاعره. لكن كريستين كانت تبدو مرتاحة تمامًا بالحديث معه ... كم كانت تبدو مُشرقة وجميلة! لن أدع الأفكار السيئة تتملكني وتنتصر علي. لن أشعر بالإهانة لمجرد أنها تفوّقت علي، كما لم بفعل أحد من قبل،فهي شقيقتي الغالية المُحبة وقد أخذت عهدًا على نفسي أمام الله بأن أحبها وبألا أعود إلى تصرفي السابق تجاهها".

ثم ركعت وأخذت تصلي بحرارة لبعض الوقت، مما أعاد إلى قلبها السكينة وجعلها تندم وتتوب. وبذلك كانت قبل أن تخلد إلى النوم قد طبعت قبلة حارة على جبين كريستين ثم حدثت نفسها:

"حسنًا إن لم تخني فراستي فسوف يقول دارسيت لكريستين بعد بضع مقابلات:

"هل تقبلين الزواج بي حبيبتي؟"

وقد ثبت أن توقعات آن كانت صحيحة. كانت كريستين بعد فترة بسيطة قد أصبحت السيدة دارسيت. كما كان تغيير كبير قد طرأ على الشقيقتين، لكن كريستين كانت من تغيّرت أكثر. كان وجهها يشعّ بالبساطة والرقة وهو الشيء الذي كانت تفتقر إليه آن. كما كانت آن قد تخلصت أيضًا مما كان لديها من التعالي وأصبحت أكثر تواضعًا.

***

الغني والفقير

The rich and the poor

انقضى الصيف الشديد الحرارة والرطوبة، وبدأت أشهر الخريف الباردة بلياليها الطويلة الهادئة. كانت بعض الأيام أكثر برودة مما استلزم إشعال النار في المواقد، وبذلك اجتمع أفراد عائلة السيد بارتون السعيدة حول الموقد بجلستهم المسائية المعتادة. كان من الممتع للجميع أن يشعروا من جديد بالدفء الذي تنشره نيران الموقد وأن يُشاهدوا انعكاس توهجها على وجوههم اللطيفة.

ابتسم جيمس وهو يمدّ يديه نحو الموقد وقال:

"كم من المُحبب أن يشعر المرء بالدفء".

وقال ويليم: "أعتقد أنني أصبحت أستمتع بفصل الشتاء، فمن المُحبب أن نجلس معًا حول الموقد وأن نشعر بحرارة النيران وبتوهجها على وجوهنا وبحرارتها على

أيدينا، وكأن في ذلك ما يجعلنا نشعر أكثر بأننا نعيش في أمان ورخاء في منزلنا ألا تعتقد ذلك أبي؟"

أجاب السيد بارتون: "بالطبع، التغيير المتتالي في الفصول هو دومًا من الأمور المُحببة. ألم يسبق أن لاحظت ذلك بُني؟"

"أووه، نعم بالطبع! فأنا أقول دومًا عندما يحلّ الربيع بأنني أشعر بالبهجة لأنه الآن فصل الربيع، وعندما يليه فصل الصيف وتبدأ الزهور بالتفتح وتبدأ الثمار بالنضوج أقول بأنني أشعر بالبهجة في فصل الصيف. ثم أشعر بعد ذلك بالسرور من جديد ،عندما يتم إغلاق النوافذ والأبواب ويكون بإمكاننا الاجتماع حول الموقد كما نفعل الآن في فصل الخريف. أما في فصل الشتاء وعندما يبدأ الثلج بالتساقط، فأنا أشعر بأن من المُمتع النظر إلى كُرات الثلج وهي تتطاير ببهجة في الهواء".

لكن ما قالته ماري تلك الفتاة اللطيفة ذات القلب الطيب كان:

"لكنني حينئذأفكر دومًا بالأطفال الفقراء الذين ليست لديهم الملابس التي تدفئهم ولا المواقد التي يجتمعون حولها كما نفعل نحن، وهذا ما يجعلني أتمنى أحيانًا بأن يظلّ الطقس دافئًا دومًا لأجلهم".

نظر السيد بارتون إلى وجه ماري المُتعاطف وقال:

"لكن الله تعالى يعرف ما هو الأفضل بالنسبة إلى كل منا وهو رؤوف بعباده كما أنه حليم حتى مع من يعصونه".

قالت ماري: "أنا أعلم ذلك أبي. كما أنه يقول في كتبه المقدسة بأنه يُشفق علينا كما يُشفق الأب على أولاده، لكن ليس بإمكاني أن أمنع من نفسي من التفكير أحيانًا بأن هناك الكثير من المُعاناة في هذا العالم".

قال والدها: "هذه هي الحياة ماري، نعم! هناك بالفعل الكثير من المُعاناة، وربما كان هذا ما يجعلنا أحيانًا نجد الكثير من الصعوبة في فهم حقيقة سرّ الوجود، ولكن هناك أمر واحد علينا أن نعرفه جيدًا وهوأن الكثير مما يُعانيه المرء قد يكون بفعل البشر، وبأن الله تعالى عندما يأذن بذلك لا بدّ أن يكون لصالح المرء ولغاية يصعب على البشر معرفة كِنهها وليس لكي يعاقبهم، ذلك لأن الله تعالى لا يعاقب البشر لأجل العقاب فقط، وإنما لكي يُوجّههم نحو طريق الهداية ولكي يمنعهم من ارتكاب الآثام والشرور... أتذكرين ما قرأته لك في الأسبوع الماضي حول التدبير الإلهي؟"

أجابت ماري: "نعم أبي ألم يكن بما يتعلق بالخلود"



"هل تذكرين ما قلته حول معنى الخلود؟"

"الخلود كل ما يتعلق بنجاة الإنسان في العالم الآخر".

"هذا ما قلته تمامًا، ولكن يعتقد الكثيرون بأن الله تعالى، وهو المُطلع على كل ما نقوم به، وحتى على أصغر تفاصيل حياتنا الدنيوية، يُحاسبنا على هذا الأساس فقط... أذكر بأنني عندما كنت فتىً يافعًا كنت أسمع رجلاً يبتهل إلى الله تعالى يوميًا وباستمرار أن يزيد ويضاعف له ثروته".

"وهل جعله الله تعالى ثرياً بالفعل أبي؟"

"لا يا ابنتي لأن الله يعلم الغيب، ولأنه كان يعلم بأن ذلك الرجل لو أصبح ثريًّا، فسوف يُدمر له المال روحه وبأن ذلك لن يكون في صالحه".

قال ويليم: "فإذن، سوف يكون من الأفضل للبعض أن يكونوا من الأثرياء كما أن من الأفضل للبعض الآخر أن يظلوا فقراء".

"دون شك، وإلا لكان جميع من هم في هذا العالم من الأثرياء ولحصلوا جميعًا على كل ما يمكن من أسباب الرفاهية على الأرض. لكن الله تعالى يمنح لكل منا ما يمكن أن يفيده في حياته الدنيوية، وبما ينقذ روحه أيضاً من ارتكاب الآثام، دون أن يكون

أحد الأمرين على حساب الآخر.... كما أن الله تعالى لا يحرم المرء من كالأثرياء، تين إن لم يسيء استخدامهما، لكنه لابدّ أن يحرم المرء منهما لو أساء استخدامهما.

قال ويليم: "ولكن ليس جميع الأثرياء من الأشخاص الطيبين بل على العكس فأنا أعتقد بأنهم، بشكل عام، من الأشخاص الأنانيين، كما أنهم يفتقرون إلى الإحساس أكثر من الفقراء، وأعتقد بأنهم لهذا السبب لن يجدوا الكثير من الفرص للخلود في الجنة".

قال والده: "أعلم بأن هذا ما يُقال لكنه خطأ كبير. قد يكون بعض الفقراء أيضًا مثلهم مثل الأثرياء، من الأشخاص الأنانيين والعديمي الإحساس، وبذلك لن يكون لديهم الكثير من الفرص لدخول الجنة .... أما بما يتعلق بموضوع الفقر والثراء فهناك دومًا إرادة الله تعالى التي تتحكم بقدر كل منهم وهذا كما قلت سابقًا بهدف إنقاذ نفوسهم.

قال والوالد: "هذا يعني أن الله تعالى عندما يجعل بعض الأشخاص من الأثرياء، بينما يكون الآخرون فقراء، فليس هذا لأن أحدهما أفضل من الآخر؟"

أجاب الوالد: "هذا بالتأكيد. ليس هذا هو السبب على الإطلاق. لا يمكن الحكم على وضع أي رجل بالاستناد إلى ظروفه وإلى مظهره الخارجي، ذلك لأن الظروف التي قد تلاءم أحدهم قد تكون سيئة جدًّا بالنسبة إلى الآخرين. لتتذكر هذا جيدًّا بُني، ولتعلم بأنه مهما كان الوضع الذي يختاره الله تعالى لك، وبأنه سواء أكان قَدرك أن تكون ثريًّا أو أن تكون فقيرًا فهذا ولا بدّ لأجل صالحك ولأن الله تعالى الذي يعلم الغيب يعلم كيف سيكون تصرفك تجاه ما يمنحه لك من النعم الدنيوية ..."

***

ملاك مُتنكّر

Angel in disguise

وهكذا كان الإدمان والبطالة والرذيلة، قد أدوا دورهم البائس المُخزي بأن توفيت الأم... كانت وهي في حالة ثمالة قد تعثرت ووقعت على الأرض أمام عتبة باب غرفتها ثم توفيت. تمددت ساكنة باردة أمام أعين أطفالها البؤساء الصغار السن الذين كانوا يصرخون عالياً لشدة الفزع. لكن الموت لا بدّ أن يُصيب جميع بني البشر...

كانت تلك المرأة الشابة طوال حياتها مُزدراة مُحتقرة ومُدانة من كل رجل وامرأة وطفل في تلك القرية ... ولكن، عندما انتشر نبأ وفاتها في القرية وتناقلته الألسن من شخص لآخر بأصوات خافتة، حلّت الشفقة على الفور محل القسوة والازدراء، كما حلّ الحزن محل الشجب والاتهام ... وبذلك هرع جميع الجوار إلى ذلك الكوخ القديم المتداعِ الذي لم يكن للمتوفاة. لا يكاد يقي من حرارة الصيف ومن برودة الشتاء. كان البعض

منهم بثياب الحداد التي يجب أن تتناسب مع مراسم دفن لائقة للمتوفاة، بينما جاء البعض الآخر وهم يحملون معهم بعض الأطعمة للأطفال الثلاثة الصغار السن الذين كانوا يتضورون من الجوع.

كان جون وهو أكبرهم سناً في الثانية عشر، فتى قوّياً مُكتنزًا بإمكانه أن يكسب عيشه بالعمل مع أي من المزارعين .. أما كيتي فهي فتاة في العاشرة جميلة مشرقة نشيطة، ولكن أكثر ما يمكن أن توصف به هو أنها كانت أيضًا ذكية جدًا بإمكانها النجاح والتميّز لو أنها لقيت فقط ما يكفي من الاهتمام والعناية ... لكن الأصغرهم سنًّا ماغي البائسة كانت طفلة عليلة بمرض غير قابل للشفاء. كانت ماغي قبل سنتين قد وقعت من النافذة وأصيبت بشلل في العمود الفقري وبذلك لم يعد بإمكانها، منذ ذلك الوقت، حتى أن تنهض من الفراش ما لم يتم حملها بين ذراعي والدتها.

كان السؤال الأكثر أهمية الذي طرح نفسه "كيف سيتم التصرف مع أولائك الأولاد؟". لم تعد الأم بعد أن تم مواراتها التراب إلى الأبد موضع حديث القرويين، ولكن لم يكن من المقبول على الإطلاق أن يُترك أولائك الأطفال بمفردهم وهم يتضورون جوعًا.

كان السيد جونس أحد المزارعين في القرية، بعد أن قام بدراسة الأمر من كل جوانبه وبعد أن ناقشه مطوّلاً مع زوجته، قد وجد بأن من الجيّد أن يُحسن لجون بأن يستخدمه لديه. أما السيدة إليز التي كانت تبحث عن فتاة تستخدمها لديها كمرافقة فقد قررت بأنه سيكون من الإحسان أن تختار كيتي لهذا العمل رغم أنها صغيرة السن بحيث لن يكون بالإمكان الاستفادة منها إلا بعد عدة أعوام.

قالت السيدة إليزا حينذاك:

"أنا أعلم بأنه بإمكاني الحصول على من هي أفضل من كيتي، ولكن ليس هناك على ما يبدو، من يرغب بمساعدتها لذا فسوف أتصرف انطلاقًا مما يُمليه علي الواجب الإنساني، رغم أنني أتوقع التعرض للمشكلات مع هذه الطفلة، فهي طفلة غير مُنضبطة، مُعتادة على التصرف على هواها".

ولكن لم يقل أحد "سوف أتولى رعاية ماغي..." على الرغم من نظرات الإشفاق التي ألقاها الجميع على تلك الطفلة الهزيلة الشاحبة، وعلى الرغم مما شعر به الجميع من القلق حول مصيرها...

كان كل ما فعلوه أن قامت الأمهات باستبدال ملابسها البالية الرثة الملوثة بملابس نظيفة وبإطعامها. كانت المعاناة التي تبدو في عيني الطفلة الصغيرة المريضة والألم الذي ارتسم على وجهها قد أثّرا في الكثير من القلوب، وحتى أنه كان قد أصابهم في العمق، ولكن لم يعرض أحدهم مع ذلك تبنيها... فمن قد يرغب بطفلة مقعدة في الفراش؟

ثم كان أحد الرجال الذين تم استمزاج رأيهم عن كيفية معالجة أمر ماغي قد قال فقط بكل فظاظة:

"عليكم أن تضعوها في مأوى الفقراء والمعوّقين، لست أعتقد أن أحدنا قد يتولى مسؤوليتها..."

وأجاب آخر "سوف يكون مأوى الفقراء والمعوّقين مكانًا حزينًا بالنسبة إلى طفلة مريضة عديمة الحيلة مثلها".

ثم قال آخر باستخفاف "قد ينطبق هذا على ابنتك أو على ابنتي، ولكن بالنسبة لمثل هذه الطفلة العبء، فسوف يكون إيداعها في مأوى الفقراء والمعوّقين جيدًا. سوف

يكون هناك من سيقوم بالعناية بنظافتها، وسوف تحصل على طعام صحي وعلى رعاية طبية حتى بأكثر مما كانت تحصل عليه في السابق".

كان ما قاله من الحكمة لكن اقتراحه لم يكن قد يحصل على التأييد.

ثم تمّ التشييع في اليوم الذي تلا الوفاة. كان بعض الجوار قد تواجدوا في ذلك الكوخ المُعدم ولكن لم يكن أحدهم قد تَبع عربة الدفن...

كان صاحب المزرعة قد اصطحب جون في عربته بعد أن تمّ الدفن، وهو يشعر بالرضى لأنه سيكون بذلك قد قدم كل ما بإمكانه من مساعدة.

كما قالت السيدة إليز لكيتي وهي تستعجلها:

"ودّعي شقيقتك بسرعة"

ثم فرقت بين الطفلتين الباكيتين اللتين لم تتمكنا حتى من تقبيل بعضهما، ثم بدأ الآخرون بالخروج بسرعة من الكوخ. كان بعضهم ينظر إلى ماغي بإشفاق، بينما أحجم البعض الآخر حتى عن النظر إليها، إلى أن غادر الجميع وبذلك بقيت تلك الطفلة وحيدة!..

لكن جو تومسون صانع العجلات كان قد توقف قليلاً أمام عتبة الباب وقال لزوجة الحداد التي كانت تُسارع بالخروج مع الآخرين:

"من القسوة بالفعل أن تترك هذه الطفلة هكذا".

لكن زوجة الحداد أجابته وهي تُسرع بالخروج وتترك جو وراءها:

"فلتأخذها إلى مأوى الفقراء المعوُقين، فسوف يكون عليها أن تعيش هناك".

وقف الرجل لفترة وهو في غاية الحيرة، ثم عاد أدراجه ودخل إلى الكوخ من جديد. كانت ماغي قد بذلك جهداً مُضنياً لكي تجلس في سريرها، وكانت تنظر إلى الباب الذي غادر منه الجميع وقد كست وجهها النحيل الشاحب نظرة فزع شديد.

عندما لمحت ماغي السيد تومسون صاحت بنفسها المقطوع "آه...أرجوك ...أرجوك سيد تومسون لا تتركني بمفردي هنا!"

وعلى الرغم من أن السيد تومسون كان يبدو جلفًا خشن الطباع إلا أنه كان في أعماقه عاطفيًا ورقيقًا جدًا، وكان يحب الأطفال جدًا ويُسرّ بمجيئهم إلى متجره الذي يتم فيه إصلاح المزاليج والعربات .

لذا توجه نحو سريرها، وقف إلى جانبه وقال لها برقّة:

"لن أترك بمفردك هنا عزيزتي".

وكان بعد أن دثرّها بملاءة نظيفة، بعناية أشبه بعناية امرأة مُحبة، قد حملها بين ذراعيه القويتين وتوجه بها إلى منزله عبر الحقل الممتد بين الكوخ وبين ذلك الكوخ المتواضع.

لم تكن زوجة السيد جو تومسون قد رزقت بالأطفال، وبذلك لم تكن دومًا بمزاج جيّد لكنها لم تكن أيضًا من النوع الورع أوممن لديهن الاستعداد للتضحية لأجل الآخرين، لذا كان جو تومسون يتوقع مُسبقًا الطريقة التي سوف تستقبل بها زوجته عودته مع تلك الطفلة.

لكن الحقيقة أن جو كان يحمل بين ذراعيه حِملاً ثمينًا، وكان ذلك ما شعر به، حتى أنه كان قد شعر عندما ضمّ تلك الطفلة المريضة إلى صدره، بأن كوكبًا من الحنان قد انبعث منها واخترق أعماق أحاسيسه، وبأن وثاقًا متينًا قد ربط بينهما، وبأن المحبة والسعادة قد أضاءتا حياته.

كانت السيدة تومسون عندما شاهدته من النافذة قد هرعت على الفور لاستقباله على بعد خطوات من المنزل. وسألته بحدّة "ما الذي تحمله بين يديك؟"

شعر جو تومسون بأن الطفلة جفلت، كانت قد التصقت به. لذا لم يُجب على سؤال زوجته سوى بنظرة كانت نظرة توسل وحذر ثم قال:

"انتظري لحظة وسوف أشرح لك الأمور. أرجو أن تكوني لطيفة معها".

ثم تجاوزها ودخل إلى المنزل وهو يحمل ماغي بين ذراعيه، وتوجه إلى غرفة صغيرة في الطابق الأول.

وكان بعد أن وضعها هناك على السرير قد عاد أدراجه وأغلق الباب ووقف في الممر الخارجي وجهًا لوجه أمام زوجته ذات المزاج النَكد.

"قالت السيدة تومسون وهي في غاية الدهشة والغضب يتطاير الشرر من عينيها:

"لِم أحضرت هذه الطفلة المريضة العليلة إلى منزلنا؟!

قال جو: "أعتقد أن قلوب النساء قد تكون أحيانًا في غاية القسوة".

كان من عادة توم تومسون، عندما تستشيط زوجته غضبًا حول أي موضوع، إما أن يُعرض عنها ويخرج من الغرفة أو أن يلتزم الصمت ويبتعد عن المواجهة. لذا كانت زوجته قد صُعقت عندما واجهت نظرة التصميم والثقة بالنفس التي كانت تبدو في عينيه وقالت:

"ليس في قلوب النساء نصف ما في قلوب الرجال من قسوة".

لكن جو كان قد لاحظ بسرعة بحدسه بأن موقفه الذي يوحي بالتصميم كان له أثره على زوجته، وبذلك أجابها بسرعة وبقدر كبير من السخط:

"هيا، لتكوني الآن مثلك مثل كل امرأة كانت بعد تشييع الأم المتوفاة قد أغمضت عينيها وأسرعت بالهرب وتركت وراءها هذه الطفلة المريضة في ذلك الكوخ القديم الذي لا تدخله الشمس حتى ساعة واحدة".

قالت السيدة تومسون: "وأين شقيقها جون وشقيقتها كيتي؟"

قال جو: "اصطحب جونس صاحب المزرعة جون معه أما كيتي فقد اصطحبتها السيدة إليز معها، بينما لم يرغب أحد مع الأسف بهذه الطفلة المريضة البائسة. كان كل ما قالوه، لتأخذوها إلى مأوى الفقراء والمعوقين".

"إذن لِم لم تدعهم ينقلونها إلى هناك ولِم أحضرتها إلى منزلنا؟"

قال جو: "ألا ترين أنه ليس بإمكانها المشي إلى مأوى الفقراء والمعوّقين، وبأن على أحدهم أن يحملها على ذراعيه، لدي ما يكفي من القوة والعزم للقيام بهذه المهمة".

سألته زوجته: "فإذن لِم لم تذهب بها إلى هناك ولِم أحضرتها إلى هنا".

"لأنني لا أريد القيام الآن بالعديد من المهام المتعبة، فسوف يكون علي قبل كل شيء أن أقابل المسؤول هناك لكي أحصل على الموافقة على قبولها لديهم".

لم يكن هناك أي ردّ يضحد ما قاله. ثم سألته زوجته بنفاذ صبر لم يكن بإمكانها كبحه:

"ومتى ستذهب لمقابلة المسؤول هناك؟"

"سوف إليه أذهب غدًا"

"لِم عليك تأجيل الأمر إلى الغد، اذهب على الفور لكي تحصل على الموافقة، عليك أن تُنهي الموضوع هذه الليلة".

قال السيد تومسون بصوت مؤثر كان قد خفف كثيرًا من ثورة غضب زوجته:

"جين، أتعلمين، عندما كنت أقرأ أحيانًا في الكتاب المقدس، كنت أجد الكثير مما تم إيراده عن الأطفال الصغار، وعن مقدار ما يزجر الله - عزّ وجلّ - ويعاقب من لا يستقبلونهم في بيوتهم، وكيف أن على المرء أن يأخذهم بين ذراعيه لكي يحصل على بركتهم. كما أن الله - عزّ وجلّ - قال بأن من يمنحهم كوبًا من الماء البارد سوف يلقى ولابدّ أحسن الجزاء. والآن، فإن أقل ما علينا أن نقوم به هو أن نؤوي هذه الطفلة

المريضة التي فقدت والدتها لليلة واحدة فقط، كل ما علينا أن نرعاها ونجعلها تشعر بالأمان والراحة لهذه الليلة".

وكان صوت ذلك الرجل القوي الشكيمة الخشن الطباع قد ارتعش وبذلك استدار لكي يُخفي عن زوجته دموعه التي بدأت تسيل من عينيه.

لم تجبه السيدة تومسون، لكن شعورًا رقيقًا كان قد غمر قلبها.

ثم قال لها زوجها بلطف: "جين، انظري إليها بعين العطف، فكّري بوالدتها التي ماتت، وبوحدتها، وبألمها وبالحزن الذي سوف يكون عليها أن تواجهه طوال حياتها".

كان الحنان الذي يشعر به في قلبه قد منحه فصاحة غير عادية.

لم تجبه زوجته وإنما توجهت إلى الغرفة التي وضع فيها زوجها الطفلة ماغي ودخلت إليها بهدوء. لكن جو لم يلحق بزوجته، لأنه أدرك حينذاك بأن موقفها قد تغيّر، وبذلك وجد بأنه قد يكون من الأفضل أن يتركها بمفردها مع الطفلة...

ثم ذهب جو إلى متجره الذي كان بالقرب من المنزل وظلّ يعمل هناك إلى أن حلّ الليل. وعندما عاد إلى منزله مساء ذلك اليوم، كان أول ما لفت نظره عندما اقترب من سور الحديقة، ضوء يلمع من خلال الغرفة الصغيرة، وكان ذلك بمثابة الطالع الحسن...

كان عليه أن يمرّ وهو في طريقه إلى الداخل، بالقرب من النافذة وبذلك لم يتمكن من منع نفسه من النظر منها إلى الداخل. كان الظلامقد انتشر في الخارج وهذا ما جعله يحتجب عن الرؤية. كانت مستلقية في ذلك الفراش وقد تم رفع رأسها على وسادة وثيرة. كان بإمكانه أن يُشاهد وجه الطفلة بالكامل على ضوء المصباح الذي يُنير الغرفة، وكانت السيدة تومسون جالسة إلى جانب السرير تتحدث إلى ماغي، لكن ظهرها كان إلى النافذة وبذلك لم يكن بإمكانه أن يُشاهد تعبير وجهها. لكن كان بإمكانه بما شاهده من تعبير وجه ماغي، أن يتوقع نوعية الحديث المتبادل بينهما. كانت عينا ماغي تُحدقان طوال الوقتبوجه زوجته، وهي تتفوّه من وقت لآخر ببعض الكلمات. كان تعبير وجهها حزينًا رقيقًا، ولكن لم يكن جو قد شاهد في نظرتها تلك المرارة والألم اللذين كان شاهدهما سابقًا على ذلك الوجه الطفولي. وبذلك سحب نَفسًا عميقًا تلاه شعور بالراحة والفرج وشعر بأن عبئًا ثقيلاً كان قد انزاح عن قلبه.

ولم يتوجّه جو تومسون مباشرة إلى الغرفة الصغيرة التي كانت فيها الطفلة، ذلك لأن زوجته كانت لدى سماع وقع خطواته الثقيلة قد أسرعت بالخروج من الغرفة التي كانت فيها مع ماغي. وبذلك وجد جو بأن من الأفضل ألا يقوم بإيراد ذكر الطفلة، ولا حتى أن يقوم بإظهار ما يُشير إلى قلقه أو إلى اهتمامه بها.

سأل زوجته: "متى سيكون طعام العشاء جاهزًا؟"

أجابت السيدة تومسون وقد بدأت تعمل بسرعة: "سوف يكون جاهزًا بعد قليل".

وكان ما أثار دهشته أنها لم تكن تتكلم بحدّة كعادتها.

بعد أن غسل جو وجهه ويديه خرج من المطبخ وتوجه نحو الغرفة التي كانت فيها تلك الصغيرة، نظرت الطفلة المضجعة في ذلك السرير النظيف إليه بعينين واسعتين مضيئتين بشعور المحبة والشكر والامتنان والتوسل. كما نظر جو للمرة الأولى على ضوء ذلك المصباح، إلى ذلك الوجه الطفولي الشاحب الجميل الذي لم تكن كل تلك المرارة والمعاناة قد أزالت منه رقّة وبراءة الطفولة، ثم جلس إلى جانب السرير وأخذ يدها الصغيرة الناعمة بين يديه وقال لها:

"اسمك ماغي أليس كذلك؟"

أجابته الطفلة بصوت خافت أشبه بلحن موسيقى: "نعم سيدي".

"هل أنت مريضة منذ مدة طويلة؟"

أجابت: "نعم سيدي"



يا الله كم كان مقدار ما في صوتها من رقّة وصبر.

"هل كان الطبيب يراقب حالتك؟"

"كان في السابق يأتي لرؤيتي من وقت لآخر".

"ولكن ليس مؤخرًا أليس كذلك؟"

"لا سيدي".

"هل تشعرين بالألم؟"

"أحيانًا، لكن ليس الآن".

"متى شعرت بالألم؟"

"كان جنبي يؤلمني هذا الصباح، كما آلمني ظهري عندما حملتني".

"أتشعرين بالألم عندما يتم رفعك أو تحريكك؟"

"نعم سيدي".

ألا يؤلمك جنبك الآن؟"

"لا سيدي".

"هل يؤلمك عادة كثيرًا؟"

"نعم سيدي، لكنه لم يعد يؤلمني منذ وضعتني على هذا السرير الوثير المريح".

"أيجعلك هذا السرير تشعرين بأنك بوضع أفضل؟"

"أووه سيدي، بالطبع... أنا أشعر الآن بأنني بوضع جيّد جدًا!"

يا الله، كم كان مقدار ما في صوتها من رضى ومن عرفان بالجميل!..

أطلت السيدة تومسون برأسها إلى الغرفة بعد وقت قصير وقالت "أصبح العشاء جاهزًا".

ألقى السيد تومسون نظرة إلى كل من وجه زوجته ووجه ماغي، وكانت زوجته قد فهمت معنى نظرته وبذلك قالت:

"بإمكانها البقاء هنا إلى أن نُنهي عشاءنا وسوف أجلب لها بعد ذلك ما تأكله".

كانت زوجته على ما يبدو قد بذلت بعض الجهد بتظاهرها بعدم المبالاة، لكن زوجها الذي كان قد شاهدها من النافذة كان قد فهم بأن هذا البرود كان زائفًا.

انتظر جو قليلاً بعد أن جلسا أمام المائدة أن تقوم زوجته بالتطرّق إلى الموضوع الأهم الذي كان يجول في أفكارهما، لكنها ظلّت صامتة لعدة دقائق وظلّت على تحفظّها إلى أن قالت أخيرًا بشكل مفاجئ:

"ما الذي تنوي فعله بشأن تلك الطفلة؟"

أجاب جو وهو يتظاهر بالدهشة لسؤالها:

"اعتقدت أنك فهمت مني بأنني سوف آخذها غدًا إلى مأوى الفقراء والمعوقين".

نظرت السيدة تومسون إلى زوجها بصمت مُطبق وبطريقة كانت بالأحرى غريبة بعض الشيء ثم أسدلت نظرها. ولم يتم التطرّق إلى الموضوع من جديد أثناء تناولهما العشاء. وبعد أن انهيا عشائهما كانت السيدة تومسون قد وضعت بعض الزبدة على قطعة من الخبز كما أعدت كوبًا من الحليب الدافئ وحملتهما إلى ماغي على صينية صغيرة، ثم وضعتهما أمامها وظلت ممسكة بالصينية بينما كانت الطفلة الجائعة تأكلهما بكل نَهم وغبطة.

كانت السيدة تومسون قد سألت ماغي وهي تشاهد مدى استمتاعها بالطعام

"أهي طيبة المذاق؟"

وضعت الطفلة كوب الحليب من يدها وأجابتها بنظرة امتنان أيقظت في قلب السيدة تومسون كل المشاعر الرقيقة التي كانت قد خمدت لسنوات طويلة.

وكانت السيدة تومسون في صباح اليوم التالي قد قالت لزوجها عندما أشار أثناء تناولهما الإفطار إلى أنه سوف يذهب لمقابلة المسؤولين عن مأوى الفقراء والمعوقين لأجل قبول ماغي لديهم:

"سوف نحتفظ بهذه الطفلة ليوم أو ليومين آخرين، فهي ضعيفة جدًا ومُنهكة القوى".

قال زوجها: "لكنها سوف تشكل عبئاً عليك".

وأجابته: "لن أهتم بذلك، ما دام الأمر ليوم أو ليومين فقط". ثم قالت: "يا للطفلة المسكينة!.."

لكن جو تومسون لم يكن قد ذهب لمقابلة المسؤولين عن دار رعاية الفقراء والمعوّقين في ذلك اليوم ولا في اليوم التالي ولا في اليوم الذي تلاه. وفي الواقع لم يكن قد ذهب لمقابلتهم على الإطلاق، لأن السيدة تومسون كانت خلال أقل من أسبوع قد تخلّت نهائيًّا عن رغبتها في إرسال الطفلة ماغي إلى دار رعاية الفقراء والمعوّقين.

كم كان مقدار النور والبركة التي حلّت في منزل عائلة تومسون بوجود تلك الطفلة المريضة العديمة الحيلة والحماية ... كان منزلهم باردًا بائسًا لمدة طويلة لأن زوجته لم يكن لديها ما تهتم به، ولم يكن لديها من تمنحه ما كان لديها من عاطفة ومن مشاعر الأمومة مثلها مثل كل النساء. وبذلك كانت حياتهم قد أصبحت مريرة جافة، وهذا ما جعل السيدة تومسون قد أصبحت مشاكسة ومتوترة على الدوام لأنها كانت تشعر بالأسى على نفسها لأنها لم ترزق بالأطفال.

ولكن الآن، وبوجود تلك الطفلة المريضة التي كانت تنظر إليها دومًا بكل محبة وامتنان، تلك النظرة التي كانت بمثابة البَلسم على قلبها، كانت السيدة تومسون قد بدأت تحمل لها في قلبها كل الحب، كما كانت تحملها بين ذراعيها أشبه بكنز ثمين عليها الحفاظ عليه... أما بالنسبة للسيد تومسون فلم يكن في كل الجوار من شعر مثله بالسعادة. كانت تلك الطفلة هي الملاك الذي جاء إلى منزله على هيئة طفلة بائسة مريضة عديمة الحماية لكي يملأ حياته بنور المحبة ولكي يجعله يتذوّق مِتعة العطاء ...

***

Top of Form

السيرة الذاتية للكاتب تيموثي شي آرثر

كاتب وشاعر أمريكي ولد في نيويورك في العام ١٨٠٩ وتوفي في فيلادلفيا في العام ١٨٨٥ وهو الولد الأصغر لضابط في جيش الثورة يُدعى ويليم آرثر.

كان ضعيف البنية لذا كانت والدته قد تولت تدريسه بنفسها. انتقل والداه إلى بالتيمور في العام ١٨١٣، لكن عجزه عن متابعة الدراسة النظامية جعله يتابع تأهيله بنفسه بما في ذلك التدرّب على إحدى الحرف اليدوية، لكنه أصيب أيضًا بضعف في بصره مما جعله يتوقف عن متابعة تدريبه على تلك الحرفة، وينطلق في عمله في مجال الصحافة. عمل مراسلاً لعدد من الصحف كما كان له دوره كناشر وكرئيس لتحرير العديد من الدوريات.

ثم بدأ الكتابة وكان نجاح روايته بعنوان "عشر ليال" في العام ١٨٣٩ قد حقق له تلك الشهرة الكبيرة.

كما كان للكاتب تيموثي شي آرثر مساهمته في الحركة الإصلاحية الدينية وفي حركة إصلاح المُدمنين، وهو المجال الذي وجد فيه مصدر الإلهام للعديد من مؤلفاته التي تضمنت الكثير من النصائح الأخلاقية حول أسس نجاح الحياة الزوجية، وحول أخلاقيات التعامل في العائلة، وأمور الطلاق، وغير ذلك من المواضيع الاجتماعية.

من أشهر مؤلفاته: من هم الأكثر سعادة ـ فائدة العمل الصالح ـ دروس في الحياة ـ مقاومة الإغراء ـ مهمة العائلة ـ الحياة الزوجية: بهجتها وكدرها – ملاك مُتنكّر ـ كل شيء للأفضل ـ سوف يأتي الوقت السعيد، وغير ذلك من الكثير من القصص الاجتماعية.

ومن أشهر قصائده: الفراشة الطليقة ـ أغنية طائر الثلج ـ ابتهالات المساء.

***